بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٥٣ ـ ذي القعدة ١٤٣٢هجرية قمرية

شهريور ١٣٩٠هجرية شمسية / اكتوبر (تشرين الأول) ٢٠١١

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

فاكس: ٨٨٣٢١٦١٦٩٨٢١ + هاتف: ٨٨٣٢١٤١١ ٩٨٢١ +

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران – طهران – ص. ب: ٦٩٩٥ـ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني:info@taghrib.ir

الموقـــع: www.taghrib.ir

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل
الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.iranarab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤ ـ ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥ ـ المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٥٣

ميثاق الصحوة ٤

الصحوة.. أسبابها ومظاهرها ١٩

الإمام الخميني (رض) والصحوة ٣٤

الصحوة الإسلامية وترشيدها ٥٠

الصحوة الإسلامية في مطلع القرن ٦٢

الصحوة الإسلامية واليقظة ٧٩

أبو فراس الحمداني ٩٣

قصة الناي في فكر الكواكبي ١١١

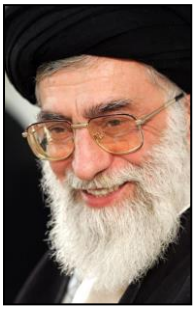

ميثاق الصحوة

كلمة السيد القائد الإمام الخامنئي في مؤتمر الصحوة الإسلامية

طهران ١٨ شوال ١٤٣٢ هجرية

بسم الله الرحمن الرحيم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله الطيبين وصحبه المنتجبين

قال الله العزيز الحكيم : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا ﴾

أرحّب بالحضور الكرام والضيوف الأعزاء. إن ما جمعنا هنا هو الصحوة الإسلامية، أعني حالة النهوض والوعي في الأمة الإسلامية، التي أدت إلى تحوّل كبير بين شعوب المنطقة، وإلى انتفاضات وثورات لم تكن تستوعبها أبدًا محاسبات الشياطين الإقليميين والعالميين. ثورات عظيمة هدمت قلاع الاستبداد والاستكبار وألحقت الهزيمة بحرّاسها.

إن مما لاشك فيه أن التطورات الاجتماعية الكبرى تستند دائمًا إلى خلفية تأريخية وحضارية، وهي حصيلة تراكم معرفي وتجارب طويلة. في الأعوام المائة والخمسين الماضية كان حضور الشخصيات الفكرية والجهادية الكبيرة والفاعلة الإسلامية في مصر والعراق وإيران والهند والبلدان الأخرى الآسيوية والأفريقية مقدمة تمهيدية لهذا الوضع الحالي في دنيا الإسلام.

إنّ ماجرى في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي الميلادي في عدد من البلدان من تطورات أدت إلى تولّي أنظمة تميل غالبًا إلى مدارس فكرية مادية، وما تبع ذلك من تورطها بمقتضى طبيعتها بعد أمد في شراك القوى الاستكبارية والاستعمارية الغربية، إنما هو أيضًا من التجارب المليئة بالعبر ومما كان له سهم وافر في بلورة الأفكار العامة والعميقة الحالية في دنيا الإسلام.

إن ما شهدته إيران من ثورة إسلامية كبرى تحقق فيها على حد تعبير الإمام الخميني العظيم انتصار الدم على السيف، وإقامة نظام متجذّر ومقتدر وشجاع ومتطوّر متمثل بالجمهورية الاسلامية، وتأثير ذلك على الصحوة الإسلامية الراهنة، هو أيضًا يشكل فصلاً مُسهبًا يحتاج إلى بحث وتحقيق، وسيستوعب حتمًا مساحة هامة في تحليل وتدوين الوضع الحالي لدنيا الإسلام.

و الحصيلة أن الحقائق المتزايدة الحالية في دنيا الإسلام، ليست بالحوادث المنفصلة عن جذورها التأريخية وأرضيتها

الاجتماعية والفكرية، ولذلك من العبث أن يعمد الأعداء أو السطحيون إلى اعتبارها موجة عابرة وحادثة سطحية، وأن يحاولوا بتحليلاتهم المنحرفة والمغرضة إطفاء شعلة الأمل في قلوب الشعوب.

إنني في حديثي الأخوي هذا أريد أن أقف عند ثلاث نقاط أساسية :

١ - إلقاء نظرة مجملة على هوية هذه النهضات والثورات .

٢ - الآفات والأخطار والعقبات الكبرى التي تقف في طريقها.

٣ - اقتراحات بشأن مواجهة هذه الآفات والأخطار ومعالجتها.

١ - في الموضوع الأول، أعتقد أن أهم عنصر في هذه الثورات الحضور الواقعي والشمولي للشعوب في ميدان العمل وساحة النضال والجهاد، لا فقط بقلبهم وبعواطفهم وإيمانهم، بل أيضًا بأجسامهم وإقدامهم.

إن الفرق كبير وعميق بين مثل هذا الحضور، وبين انقلاب يقوم به جمع من العسكريين أو مجموعة مناضلة مسلحة أمام شعب لايتفاعل معهم أو حتى أن لا يكون راضيًا عنهم.

في حوادث العقدين الخامس والسادس من القرن الميلادي الماضي كان عبء الثورات في عدد من بلدان آسيا وأفريقيا لاتحمله الجماهير والشباب، بل تنهض به مجموعات انقلابية أو فئات صغيرة ومحدودة مسلحة. أولئك عزموا وأقدموا، ولكن حين غيروا هم أو الجيل الذي تلاهم طريقهم على أثر دوافع وعوامل

عديدة فإن الثورات قد انقلبت إلى ضدها وعاد العدو ليفرض سيطرته مرة أخرى.

إن هذا يختلف كل الاختلاف مع تغيير تنهض به جماهير الشعب التي تندفع بأجسامها وأرواحها إلى الميدان وتطرد العدو من الساحة.

و هنا، وهنا فقط تصنع الجماهير شعاراتها، وتعين أهدافها وتشخّص عدوّها وتفضحه وتتعقبه، وترسم – ولو بإجمال – مستقبلها، وبالنتيجة تقطع الطريق على الخواص المهزومين والملوثين بل من الأولى على عناصر العدوّ المندسة من أن يعمدو إلى الانحراف ومداهنة العدوّ وتغيير المسير.

إن التحرك الجماهيري قد يؤدّي إلى تأخر الانتصار النهائي للثورة، ولكنه يبتعد عن السطحية وعن عدم الثبات. إنه من مصاديق الكلمة الطيبة التي قال عنها سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾

إنني حين رأيت التجمع الجماهيري الضخم المقاوم للشعب المصري الفخور من شاشة التلفزيون في ميدان التحرير أيقنت أن هذه الثورة منتصرة بإذن اللّه.

أذكر لكم هذه الحقيقة وهي : أنه بعد انتصار الثورة الإسلامية وإقامة النظام الإسلامي في إيران وما نزل على أثر ذلك من زلزال عظيم هزّ القوى الطامعة الشرقية والغربية وما ولّده من

موجة هائلة فريدة بين الشعوب المسلمة.. كنا نتوقع أن مصر سوف تنهض قبل غيرها . والذي أثار في قلوبنا هذا التوقع ما كنا نعرفه عن مصر من تاريخ جهادي وفكري ولما أنجبته من شخصيات مجاهدة وفكرية كبرى، لكننا لم نسمع صوتًا واضحًا من مصر. كنت مع نفسي أخاطب الشعب المصري بقول أبي فراس الحمداني :

أراك عصيّ الدمع شيمتك الصبر أما للهوى نهى عليك ولا أمر ؟

ولكن حين تدفقت الجماهير المصرية إلى ساحة التحرير والساحات المصرية الأخرى سمعت الجواب، فإن الشعب المصري كان يقول لي بلسان قلبه :

بلى أنا مشتاق وعندي لوعة ولكن مثلي لايذاع له سرُّ

هذا السّر المقدس، يعني العزم على الثورة قد تبلور ونضج في أعماق الشعب المصري بالتدريج، وتجلّى بإذن الله وبحوله وقوته في الساحة بشكله العظيم.

تونس واليمن وليبيا والبحرين تجري على نفس هذه القاعدة إن شاء الله تعالي .﴿وَمِنْهُمْ مّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدّلُواْ تَبْدِيلاً ﴾

في مثل هذه الثورات، الأصول والقيم والأهداف لم تدوّن في مشاريع مسبقة على يد الفئات والأحزاب، بل هي مدوّنة في أذهان كل أفراد الشعب المتواجد في الساحة وفي قلوبهم وإرادتهم، ومعلنة ومثبتة في شعاراتهم وسلوكهم.

بهذه المحاسبة يمكن بوضوح تشخيص أن أصول الثورات

الحالية في مصر وبقية البلدان تتجلّى بالدرجة الأولى فيما يلي :

- إحياء وتجديد العزة والكرامة الوطنية التي انتُهكت على يد الهيمنة الدكتاتورية للحكام الفاسدين والسلطة السياسية لأمريكا والغرب.

- رفع راية الإسلام الذي يمثل العمق العقائدي والعاطفي للشعب وتوفير الأمن النفسي والعدالة والتقدم والتفتح، مما لايتحقق إلاّ في ظلّ الشريعة الإسلامية .

- الصمود أمام النفوذ والسيطرة الأمريكية والأُوربية التي أنزلت خلال أعوام أكبر الضربات والخسائر والإهانات بشعوب هذه البلدان.

- نضال الكيان الصهيوني الغاصب ودولته اللقيطة التي غرسها الاستعمار مثل خنجر في خاصرة بلدان المنطقة وجعلها وسيلة لاستمرار سلطته المتجبرة، وشرّد شعبًا من أرضه التأريخية.

مما لاشك فيه أن تبنّي ثورات المنطقة لهذه الأصول وسعيها لتحقيقها لاينسجم مع رغبات أمريكا والغرب والصهيونية، وهولاء يبذلون ماوسعهم من جهد لينكروا ذلك، لكن الواقع لايتغير بإنكاره.

إن شعبية هذه الثورات هي أهم عنصر في تشكيل هويتها . القوى الطامعة بذلت كل جهدها ومارست كل أساليبها الملتوية لحفظ الحكام المستبدّين والفاسدين والتابعين في هذه البلدان، ولم تكفّ عن دعمهم إلاّ حينما انقطع أملها على أثر ثورة الجماهير وعزمها.

من هنا فإن هذه القوى لايحق لها أن تعتبر نفسها مساهمة في هذه الثورات. وفي بلد مثل ليبيا لايستطيع تدخّل أمريكا والناتو أن يكدّر هذه الحقيقة. في ليبيا أنزل الناتو خسائر فادحة لاتعوّض. لو لم يكن هذا التدخّل فإن انتصار الشعب الليبي كان من الممكن أن يتأخر قليلاً، ولكن سوف لاينزل بالبلد كل هذا الدمار في بُناه التحتية، ولاتزهق كل هذه الأرواح من النساء والأطفال، ولا يدّعي اولئك الأعداء الذين كانت يدهم لسنوات بيد القذافي بأنّ لهم حق التدخّل في هذا البلد المظلوم المُدمّر.

إن جماهير الشعب والنخب الجماهيرية والذين انطلقوا من الجماهير هم أصحاب هذه الثورات والأمناء علي حراستها والذين يرسمون مستقبلها ويدفعون بعجلتها إن شاء الله تعالى.

٢ - موضوع الآفات والأخطار.. لابد من التأكيد أولاً أن الآفات والأخطار موجودة، ولكنّ هناك أيضًا سبلاً للوقاية منها. لاينبغي أن تكون الأخطار مبعث خوف الشعوب، دعوا الأعداء يخافوكم واعلموا ﴿إِنّ كَيْدَ الشّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ ربّ العزة والجلال يقول بشأن فئة من المجاهدين في عصر الرسالة : ﴿الَّذِينَ قالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزادَهُمْ إِيمانًا وقالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ ونِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ واتَّبَعُوا رِضْوانَ اللَّهِ واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

لابدّ من معرفة الأخطار والآفات للوقاية من الحيرة والترديد عند مواجهتها، ولنكون على معرفة مسبقة بتشخيص علاجها.

إننا واجهنا هذه الأخطار بعد انتصار الثورة الإسلامية وعرفناها وجربناها وخرجنا من أكثرها بسلام بفضل الله وقيادة الإمام الخميني ووعي جماهيرنا وبصيرتهم وتضحياتهم . طبعًا لايزال الأعداء يحوكون المؤامرات ولايزال الشعب يقاوم بعزيمة راسخة لا تلين.

إنني أقسّم هذه الأخطار والآفات على قسمين : ماكان له جذور في داخلنا وينبثق من ضعفنا ، وماكان نتيجةً مباشرةً لتخطيط أعدائنا.

القسم الأول هو من قبيل : الشعور والظن بأن سقوط الحاكم العميل والفاسد والديكتاتور هو نهاية الطريق. إن هذا سوف يبعث على الارتخاء وراحة البال والغرق في نشوة النصر، وما يتبع ذلك من ضعف الدوافع وهبوط العزائم. هذا هو الخطر الأول . وسوف يتفاقم هذا الخطر حين يعمد أشخاص إلى الحصول على سهم خاص في الغنيمة. ماجرى في " معركة أُحد " حيث طمع المحافظون على مضيق الجبل بالغنيمة وما أدّى ذلك إلى هزيمة المسلمين وإلى لوم ربّ العالمين إنما هو نموذج بارز ينبغي أن لاننساه أبدًا.

إن الشعور بالخشية من الهيمنة الظاهرية للمستكبرين والإحساس بالخوف من أمريكا وسائر القوى الطامعة، خطر آخر من هذا القبيل، ولا بّد من توقّيه. النخب الشجاعة والشباب يجب أن يطردوا من القلوب هذا الخوف.

إن الثقَة بالعدوّ والانخداع بابتسامته ووعوده ودعمه إنما هو من الآفات الكبرى الأخرى التي يجب أن يحذر منها بشكل خاص النخب وقادة المسيرة . يجب معرفة العدوّ بعلاماته مهما تلبس من لباس، وصيانة الشعب والثورة من كيده الذي يدبره في مواضع خلف ستار الصداقة ومّد يد المساعدة . ومن جانب آخر قد يعتري الأفراد غرور ويحسبون العدوّ غافلاً، لا بّد من اقتران الشجاعة بالتدبير والحزم وحشد كل الإمكانات الإلهية في وجودنا لمواجهة شياطين الجنّ والإنس .

إثارة الاختلافات وخلق الصراعات بين الثوريين والاختراق من خلف جبهة النضال هي أيضًا من الآفات الكبرى التي يجب الفرار منها بكل ما أوتينا من قوة.

أما آفات القسم الثاني: فإن شعوب المنطقة قد خبرتها غالبًا في الحوادث المختلفة . وأولها تولّي الأمور عناصر تعتقد أن لها التزامات أمام أميركا والغرب . الغرب يسعي بعد السقوط القهري للعناصر العميلة أن يحافظ على أصل النظام والمحاور المفصلية للقدرة ويضع رأسًا آخرعلى هذا البدن وبذلك يواصل فرض سيطرته. وهذا يعني إهدار كل المساعي والجهود، وفي هذه الحالة إن واجهوا مقاومة الجماهير ووعيها فسوف يسعون إلى بدائل انحرافية أخرى يضعونها أمام الثورة والجماهير . هذه البدائل يمكن أن تتمثل باقتراح نماذج للحكم والدستور تدفع بالبلدان إلاسلامية مرة أخرى الى شراك التبعية الثقافية

والسياسية والاقتصادية للغرب، ويمكن أن تتمثل في اختراق صفوف الثورة وتقديم الدعم المالي والإعلامي لتيار مشكوك وعزل التيارات الثورية الأصلية . وهذا يعني أيضًا عودة تسلط الغرب وتثبيت النماذج الغربية التي أكل الدهر عليها وشرب والغريبة على مبادئ الثورة وبالتالي السيطرة على الأوضاع.

ولو أن هذه الخطط لم تفلح بأجمعها فإن تجربتنا تقول إنهم سيعمدون إلى أساليب منها إثارة الفوضى والاغتيالات والحرب الداخلية بين أتباع الأديان أو القوميات والقبائل والأحزاب، بل بين الشعوب والبلدان الجارة، إلى جانب فرض الحصار الاقتصادي والمقاطعة وتجميد الأرصدة الوطنية وأيضًا الهجوم الشامل الإعلامي والدعائي . إن الهدف من وراء كل ذلك جعل الشعوب تشعر بالتعب واليأس، والثوار بالترديد والندم، والأعداء يعلمون أن مثل هذه الحالة تجعل هزيمة الثورة ممكنة وميسورة . اغتيال النخب الصالحة والفاعلة أو الإساءة إلى سمعة بعضهم، ومن جهة أخرى شراء ذمم العناصر الهزيلة هي أيضًا من الأساليب المتداولة للقوى الغربية وأدعياء التمدن والأخلاق!!

إن وثائق وكر التجسس الأمريكي التي وقعت بيد الثورة في إيران الإسلام، أوضحت بدقة أن كل هذه الدسائس قد خطط لها نظام الولايات المتحدة الأمريكية . إعادة الرجعية والاستبداد والحاكمية التابعة في البلدان الثورية مبدأ يجيز لهم ممارسة كل هذه الأساليب القذرة .

٣ - وفي آخر قسم من حديثي أضع أمام تشخيصكم وانتخابكم توصيات أستقيها من تجاربنا العينية في إيران ومن مطالعة دقيقة لبقية البلدان .

من المؤكد أن ظروف الشعوب والبلدان ليست على نحو واحد في جميع الأمور. لكن ثمة بينات تستطيع أن تكون للجميع مفيدة.

أول الحديث هو أنه من الممكن التغلب على كل هذه الموانع والآفات واجتيازها اجتيازًا منتصرًا بالاتكال على الله والاعتماد عليه وحسن الظن بما ورد في كتابه العزيز من وعد بالنصر، والتحلّي بالتعقل والعزم والشجاعة. إنكم طبعًا قد نهضتم بعمل كبير كبير ومصيري. لذلك لا بّد أن تتحملوا من أجله أيضًا متاعب كبيرة، أمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: « فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَقْصِمْ جَبَّارِي دَهْرٍ قَطُّ إِلاّ بَعْدَ تَمْهِيلٍ ورَخَاءٍ ولَمْ يَجْبُرْ عَظْمَ أَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا بَعْدَ أَزْلٍ وبَلاءٍ وفِي دُونِ مَا اسْتَقْبَلْتُمْ مِنْ عَتْبٍ ومَا اسْتَدْبَرْتُمْ مِنْ خَطْبٍ مُعْتَبَر...»

توصيتي الهامة أن تروا أنفسكم دائمًا في الساحة : ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ﴾, واجعلوا الله سبحانه نصب أعينكم وثقوا بأنه في عونكم: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾, وأن لا تكون الانتصارات مبعث غرور وغفلة : ﴿إذا جاءَ نَصْرُ اللّهِ والْفَتْحُ ورَاَيْتَ النّاسَ يَدْخُلُونَ في دينِ اللّهِ اَفْواجًا فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واسْتَغْفِرْهُ اِنّهُ كانَ تَوّابًا﴾ هذه دعامات حقيقية لكل شعب مؤمن .

توصيتي الأخرى إعادة قراءة أصول الثورة بشكل مستمر . الشعارات والأصول يجب أن تخضع للتنقيح والتطبيق مع أصول الإسلام ومحكماته. الاستقلال والحرية والعدالة، وعدم الاستسلام أمام الاستبداد والاستعمار، ورفض التمييز القومي والعنصري والمذهبي، ورفض الصهيونية رفضًا صريحاً وهي التي تشكل أركان النهضات المعاصرة في البلدان الإسلامية، هي بأجمعها مستقاة من الإسلام والقرآن .

دوّنوا مبادئكم، وحافظوا بحساسية كبيرة على أصالتكم، ولا تدعوا أعداءكم يدوّنون نظام مستقبلكم، لا تدعوا أصولكم الإسلامية تُقدم قرباناً على مذبح المصالح العابرة .

الانحراف في الثورات يبدأ من الانحراف في الشعارات والأهداف، لا تثقوا إطلاقًا بأمريكا والناتو وبالأنظمة المجرمة مثل بريطانيا وفرنسا وإيطاليا التي جثمت لأمد طويل على صدور بلدانكم ووزّعت بينها بلدانكم ونهبت ثرواتكم، تعاملوا معها بسوء ظن ولا تصدّقوا ابتساماتهم، فوراء هذه الابتسامات والوعود تكمن الخيانات والمؤامرات. ابحثوا عن حلولكم من منبع الإسلام الفياض وردّوا وَصْفات الأجانب إليهم .

توصيتي المهمة الأخرى الحذر من الاختلافات المذهبية والقومية والعنصرية والقبلية والحدودية . اعترفوا بالتفاوت ووجّهوه بإدارة حاذقة . التفاهم بين المذاهب مفتاح النجاة .

أولئك الذين يضرمون نيران التفرقة المذهبية أو يعمدون إلى

تكفير هذا وذاك، هم عملاء الشيطان وجنده حتى لو لم يعلموا هم بذلك .

إقامة النظام عمل كبير وأساسي، إنه عمل معقد وصعب . لا تدعوا النماذج العلمانية أو الليبرالية الغربية، أو القومية المتطرفة، أو الاتجاهات اليسارية الماركسية تُفرض عليكم .

إن ا لمعكسر الشرقي قد انهار والمعسكر الغربي يتوسل بالعنف والحرب والخدعة، ليحافظ على بقائه وليس له عاقبة خير متصورة في الأفق.

مرور الزمان بضررهم ولصالح تيار الإسلام.الهدف النهائي يجب أن يتمثل في التوجه نحو الأمة الواحدة الإسلامية وبناء الحضارة الإسلامية الجديدة علي أساس الدين والعقلانية والعلم والأخلاق.

تحرير فلسطين من مخالب الوحش الصهيوني هو أيضًا هدف كبير . بلدان البلقان والقفقاس وآسيا الغربية قد تحررت من سيطرة الاتحاد السوفيتي السابق بعد ثمانين سنة من الاحتلال، فلماذا لا تستطيع فلسطين المظلومة بعد سبعين سنة أن تتحرر من أسر السيطرة الصهيونية ؟!

الجيل المعاصر في البلدان الإسلامية له قدرة النهوض بمثل هذا العمل الكبير. جيل الشباب مبعث افتخار مَنْ سبقه من أجيال . يقول الشاعر العربي:

قالوا :أبو الصخر من شيبان قلت لهم

كلا لعمري ولكن منه شيبانُ

و كم أبٍ قد علا بابنٍ ذُرى شَرَفٍ

كما علا برسولِ اللّه عدنانُ

ثقوا بجيل شبابكم أحيوا روح الثقة بالنفس في وجودهم وغذّوهم بتجارب الآباء والأجداد .

و ثمة ملاحظتان مهمتان في هذا المجال :

الأولى : أن أحد أهم مطالب الشعوب الثائرة والمتحررة أن يكون لها الحضور وأن يكون لأصواتها الدور الحاسم في إدارة البلاد.

ولما كانت هذه الشعوب مؤمنة بالإسلام فإن مطلوبها هو «نظام السيادة الشعبية الإسلامي » أي إن الحكام يُنتخبون وفق تصويت الناس، وأن تكون القيم والأصول الحاكمة على المجتمع وفق أصول قائمة على المعرفة والشريعة الإسلامية .

و هذا يمكن تحقيقه في البلدان المختلفة بأساليب وأشكال مختلفة بمقتضى ظروفها ، لكن يجب المراقبة بحساسية كاملة كي لا يختلط هذا المشروع بالديمقراطية الليبرالية الغربية . الديمقراطية الغربية العلمانية أو المعادية للدين أحيانًا ليس لها أي ارتباط بسيادة الشعب الإسلامية الملتزمة بالقيم وبالخطوط الأصلية الإسلامية في نظام البلاد .

الملاحظة الثانية أن التوجه الإسلامي يجب أن لا يختلط بالتحجّر والقشرية والتعصب الجاهل والمتطرف .

لا بدّ أن يكون الفاصل بين هذين الاثنين واضحًا. التطرف الديني المقرون غالبًا بالعنف الأعمى هو عامل التخلف والابتعاد عن

الأهداف السامية للثورة، وهذا بدورة عامل ابتعاد الجماهير وفي النتيجة سيكون عامل فشل الثورة.

خلاصة الحديث أن الكلام عن الصحوة الإسلامية ليس بحديث عن مفهوم مبهم غير شخص ويقبل التأويل والتفسير . إنه حديث عن واقع خارجي مشهود ومحسوس ملأ الأجواء وفجّر الثورات الكبري وأسقط عناصر خطرة في جبهة الأعداء وأخرجهم من الساحة . ومع ذلك فالساحة لا تزال هشّة وتحتاج إلى بلورة وإلى تحقيق الأهداف النهائية .

الآيات التي تليت في مطلع الحديث تشتمل على منهج كامل للعمل وله الفاعلية الدائمة وخاصة في هذه البرهة الحساسة المصيرية . إنها تخاطب النبي الأكرم صلي الله عليه وآله وسلم لكننا جميعًا في الواقع مخاطبون بها ومكلفون .

أول توصية في هذه الآيات بالتقوى بمعناها السامي والواسع، ثم رفض الطاعة للكافرين والمنافقين، ثم اتباع الوحي وبالتالي التوكل على ألله والاعتماد عليه .

مرة أخرى أمرّ على هذه الآية الكريمة : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا﴾

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

الصحوة..أسبابها ومظاهرها

محمد علي التسخيري *

يكاد الحديث في هذا الموضوع يعد من أجمل الأحاديث، لأنه يتعلق بأهم قضية وأهم ظاهرة تعيشها الأمة الإسلامية كونها تمثل منعطفًا في تاريخها المبارك... وما أجمل أن نركز على قضايانا المعاصرة من زاويتها العقائدية والحضارية، بدلاً من الانشغال في مشاكل عقيمة، بعيدة عن الواقع الذي نعيشه والأهداف التي نرنو إليها.

وقد ارتأيت في مجال تناولي هذه الظاهرة المباركة أن أتعرض لها من زاويتين: (الحقيقة، الأسباب) تحقيقًا للترابط المقوّم بينهما، وتأكيدًا للنتائج العملية التي يجب أن ننتهي إليها من خلال البحث.

حقيقة الصحوة الإسلامية

إن من نافلة القول أن نتحدث عن التركيبة الإسلامية ككل،

---

* - الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

إذ التذكير بها يحقق تمهيدًا جيدًا لفهم حقيقة الصحوة الإسلامية. فالإسلام عقيدة تحدد للإنسان موقفه من الكون والحياة والإنسان بتاريخه وحاضره ومستقبله. وتنبثق من هذه العقيدة مفاهيم تشكل أساسًا عمليًا واسع الأبعاد. وعلى أساس العقيدة والمفاهيم الحياتية، تتخذ العواطف الإنسانية مسارًا توجيهيًا تختلف اختلافًا حقيقيًا عنها عندما لا تعيش في هذا الإطار.

وبعد كل هذه الأرضية المناسبة يأتي البناء الاجتماعي الإسلامي ليشمل تخطيط الإسلام لكل نواحي الحياة الإنسانية.

وحينئذ فالمسلم الواعي حقًا يتمتع بالعناصر التالية:

أولاً: فهم الحقيقة الإسلامية فهمًا مطّرد العمق.

وثانيًا: إيمان منطقي بها.

وثالثًا: نفوذ إيماني إلى العواطف، وصياغتها الصياغة التي تنسجم بها مع الأسس.

ورابعًا: نقل واع لها إلى المجال العملي، الشخصي والعام.

إنها العناصر التي يمتاز بها المسلم الواعي، والتي يصعد الإنسان بها مدارج الكمال من خلال تأصّلها في وجوده وحياته.

وعنصر الفهم يعم فهم الإسلام ـ أساسًا وبناء نظريًا ـ من جهة، والإطار العملي التنفيذي من جهة أخرى، وأعني بالفهم الإسلامي التطبيقي؛ فهم التعليمات الإسلامية الهادفة لكيفية ملء المساحة المباحة، أو ما أطلق عليها أحد كبار المفكرين منطقة الفراغ،

التي تركها الإسلام للحاكم الإسلامي ليقوم بملئها على ضوء التعليمات مع ملاحظة المصلحة الإسلامية العليا والظروف الموضوعية القائمة. ويعتبر ما يسمى الأمر الموحى مباشرة أسمى درجات هذا الفهم في حين يتلوه في الدرجة ما يتحصل بالاجتهاد الأصيل الصحيح.

أما عنصر الإيمان فهو بدوره متفاوت الدرجة، مما يسوّغ أن يؤمر الذين آمنوا بالإيمان، وتصعيد هذه الدرجة أو توسيع المساحة الإيمانية، ويشمل الإيمان بالموقع المحدد من الكون والمنطق الحياتي والهدف السامي ونوع السبيل إلى الهدف.

وإذا ركزنا على الصعيد العاطفي رأينا التدريج نفسه فيه، حتى يصل الأمر إلى مستوى أن يملأ الحب الإلهي وجود العبد فيسمو حتى ليقول الحديث عن الزهراء(س) ـ تلميذة الإسلام ـ: «إن الله تعالى يرضى لرضاها ويغضب لغضبها»، وحتى يتحول الدين إلى حب كله، «هل الدين إلا الحب» كما جاء في بعض الروايات.

ومن هنا يُدعى المؤمنون إلى تجاوز مرحلة الإيمان العقلي المجرد، إلى مرحلة الخشوع والتحرك العاطفي. فيقول تعالى:

﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم﴾.[1]

---

(١) الحديد: ١٦.

وأخيرًا تصل المرحلة إلى عنصر العمل، الذي يأتي بشكل طبيعي بعد التحرك العاطفي، ذلك لأن الإرادة الإنسانية هي حصيلة الشوق المؤكد إلى حد كبير.

وأشد الناس تمزقًا في الشخصية هم: أولئك الذين تنفصل أعمالهم عن عقائدهم وعواطفهم، وأذكر هنا قولة للفرزدق، قالها بعد أن سأله سبط رسول الله الحسين بن علي (ع) عن وضع أهل الكوفة آنذاك فأجاب: «قلوبهم معك وسيوفهم عليك».

والواقع أن انعدام العمل يشكل قرينة طبيعية على عدم فاعلية الأسس.

يقول القرآن الكريم:

﴿أرأيت الذي يكذب بالدين. فذلك الذي يدعُّ اليتيم. ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾.

بعد هذا التحديد لمعالم الوعي والصحوة، يمكننا أن نشخّص تحققها في أي زمان ومجتمع، عبر ملاحظة تحولها إلى ظاهرة اجتماعية، وعدم اقتصارها على مجموعة صغيرة. نعم إذا شملت الصحوة قطاعًا كبيرًا، وتعاطفت معها الأكثرية الجماهيرية المسلمة أمكن ـ بحق ـ أن يتحلى ذلك المجتمع بحالة الصحوة الإسلامية.

هكذا كانت الغفوة

لقد مرت أمتنا الإسلامية بفترات زمنية طويلة، عمَّتها فيها

غفوة، وشملها تخدير وضياع مقيتان يعتصر لهما القلب ألمًا.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر إلا على صُعُد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فمن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزيئية تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كل الجهات، فهو ممزق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء، وهو ممزق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد، والولاءات المتعددة، وآلهة التاريخ والتمدن، والعنصرية، والقومية، والوطنية، واللون وحتى العلم، وكلها تشكل مطلقات يجردها الذهن الإنساني من نِسبيتها، ويمنحها صفة الإطلاق لتشكل ـ بالتالي ـ قيودًا على التحرك الحضاري إلى الأمام، ويصبح الانشغال بالهموم الضيقة والشخصية هو الديدن العام؛ وقليل أولئك الذين يفكرون لصلاح الأمة كل الأمة، ويعيشون قضاياها الرئيسة؛ وجراثيم الكفر والانحراف الفكري والخلقي تسود الساحة، فلا تجد أمامها من يقف في وجهها؛ والروح الحماسية ميتة، إلا تعصبًا لمال أو تجمّع أو مذهب خاص أو حاكم طاغٍ.

ومن الطبيعي ـ والحال هذه ـ أن تكون هذه القابلية محفزًا للاحتلال على مختلف الصعد ومنها الصعيد العسكري.

وهكذا كان الحال، وبدأت ـ الصحوة شيئًا فشيئًا ـ حتى بلغت ما نحن فيه من حال.

معالم الصحوة

وقد تمثلت معالم الصحوة اليوم في أمور كثيرة، لسنا بصدد استيعابها بقدر ما نحن فيه من الإشارة، حيث نجدها في:

ـ هذا الاتجاه العام نحو تفهم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.

ـ وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة ـ وخصوصًا قطاع الجيل الشاب ـ نحو تطبيق الإسلام، في كل شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كل المهالك والمشاكل، التي تورطت فيها مسيرة الأمة.

ـ وهذا التفهم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي، في التخطيط لمسخ الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دمائها.

ـ وكذلك تفهّم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، وطبيعة المرحلة التاريخية التي تعيشها.

ـ وكذلك هذا الترابط الإحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتز المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها، وهذا الاتجاه الرائع نحو الوحدة الإسلامية والتقريب بين المذاهب، وتناسي الصراعات الجانبية.

ـ ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدة على كل الأرض الإسلامية. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنها تكشف جميعًا عن التطلع والعمل على صنع المستقبل.

ـ وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقضّ مضاجع اللصوص الكبار، وتهزّ عروش العملاء الصغار، وتمزّق أستار المتستّرين والمتبرقعين. إنها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمد أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسيًا دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم،

ـ وأخيرًا وليس آخرًا: هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعة والخمر والميسر وباقي العادات السيئة؛ وذلك يمثل ظاهرة إسلامية حميدة.

كل هذا أرعب دهاقنة الكفر وعملاءهم، حتى أيقنوا أن ما كانوا يخشونه قد تحقق، واستعادوا ـ من جديد ـ إلى ذاكرتهم قولة غلادستون عن القرآن، كأكبر عنصر دفاعي لدى المسلم، وقولة ديغول حين حذرهم ـ في الأربعينات ـ من هذا العملاق النائم، والذي تداعب خصلات شعره مياه الأطلسي، وتغسل رجليه مياه المحيط الهادئ... وقولة الجنرال غلوب باشا «إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط يعود إلى القرن السابع للميلاد» فراحوا يكررون التحذير.

فوزير الخارجية الأمريكي يحذر العالم من اليقظة الإسلامية

ووزير الخارجية الإسرائيلي يكرر التحذير، وهذان العملاقان المتعاديان في الشرق والغرب يضعان يدًا بيد لمواجهة المد الإسلامي. لقد اشتد التخطيط لمواجهة هذا السيل الإسلامي العارم، الذي يهدد حضارتهم بالزوال، لأنه يحمل العلاج الناجع، والذي يمزق أحلامهم، ويقضي على منافعهم الرخيصة.

وكأن الاستعمار - بين عشيّة وضحاها - وجد أن كل أحابيله وبؤره السرطانية التي زرعها في قلب هذه الأمة تزول، وكل الآلهة التي نصبها أمامها - كما أشرنا إليها من قبل - تتهاوى وتتمزق تمامًا، كما وجد المبشر المسيحي نفسه في حيرة، عندما حدّث بعض المسلمين عن معاجز «الرب المسيح» فرحوا يصلّون على محمد وآل محمد.

لقد وجد الاستعمار أن القوى والأساطيل الجامدة تذوب عند كل صرخة تكبير يطلقها مجاهد مسلم، واستولى الرعب على الطغاة عندما وجدوا أن القيود والسجون ترتجف، أمام تكبير الأسير المسلم وصرخته الربانية الهادرة.

أسباب الصحوة

وليس من الصعب على من ينطلق في تفكيره من زاوية إسلامية موضوعية أن يكتشف، أسباب هذا التحول العظيم في حياة الأمة. نعم قد يعمى عنها الحوّل القلّب، أما البصير، فلا يشك في كونه لطفًا إلهيًا محضًا، شمل هذه الأمة بعد فترة، وأهّلها لأن تطرح

نفسها في الساحة العالمية، وتمكّن إسلامها من قيادة العالم من جديد، موطئةً لليوم الموعود، حيث ﴿يكون الدين كله لله﴾.

أما العناصر التي أهّلت الأمة لشمول هذا اللطف الإلهي لها، فهي:

أولاً: العمل الدؤوب للعلماء والمفكرين الذين أحسوا بداء هذه الأمة، وراحوا يخططون ويرسمون لها سبل العلاج. والواقع إن عمل العلماء انصبّ على أن يستعيد الإسلام دوره في النفوس والعقول، وحينئذ فهو يتكفل بدفعها نحو سبل السعادة، بما يحمله من طاقات ذاتية، وإبداع متدفق يفجر طاقات الفطرة، ويستخرج مكنوناتها، ويستثير دفائنها، وإذا تجلت الفطرة النفسية على صعيد الحياة، كان الفلاح كله.

والجدير بالذكر أن هؤلاء المفكرين لم يستطيعوا أن يحققوا ما حققوا إلا بعد أن حرروا نفوسهم من المتع الرخيصة، ونذروا أنفسهم للهدف، وتخلصوا من قيود التبعية، للحكام الذين شكلوا ــ في فترة الغفوة ــ قيودًا ظالمة، وإلا بعد أن اتصفوا بالعلمية والروح التغييرية الإسلامية معًا.

ولن تستطيع كل أساليب التمويه والخداع والاتهام أن تمحو من أسماع الأمة صرخات الأسدآبادي (الأفغاني) وعبده، والبنا، وسيد، وعودة، والمودودي، وابن باديس، والإبراهيمي، والمطهري، والشهيد الصدر، والإمام الخميني، بعد أن أدت دورها العظيم في تحقيق هذه الصحوة المباركة.

ثانيًا: الدور الرائع الذي قامت به الحركات الإسلامية، في نشر التوعية والحماس الثوري بين أبناء الأمة. وقد اختلف تأثير هذه الحركات على هذه المنطقة أو تلك، كما اختلف مستوى الوعي والحماس لدى هذه الحركة عن تلك، إلا أنها جميعًا قد أججت الشوق الجماهيري نحو تطبيق الإسلام، وأوجدت شعورًا ذا مساحة معتد بها، بلزوم مقاومة مظاهر الطاغوت، والعودة للإسلام... وإني لأعلم أن الكثير الكثير من أبناء هذه الأمة قد اهتدى بفعل تأثير هذا العامل، كما أعلم أن الكثير من المحاولات الاستعمارية، والعميلة، قد جرت لجرّ بعضها إلى سبيل الاحتواء، أو الانضواء تحت الرايات الخادعة، أو الاعتماد على أنظمة لا تمت إلى الإسلام بصلة. وطبيعي أن هذه المحاولات لابد أن ينكشف زيفها في فضاء الوعي السائد، وهكذا كان الأمر، وراحت حركة التوعية تقطع أشواطها الضخمة التأثير.

ثالثًا: ردود الفعل التي اعقبت الهجوم الغربي الفاشل على العالم الإسلامي، فبالرغم من التخطيط الدقيق لهذا الهجوم، والعمل على أن يستوعب مختلف الجوانب الحياتية ويستكمل كل عناصر النجاح المطلوب، بل وبالرغم من هذا النجاح الظاهري، الذي تصور الاستكبار العالمي أنه حققه، فسلب الأمة فكرها، وإيمانها بإسلامها، وعاطفتها الحماسية، وشخصيتها، وبالتالي ثروتها المادية، حتى ظن أنها قد ماتت، أو هي توشك على الموت، بعد أن شد وثاقها بالحدود المصطنعة، ومزق وجودها بالتناحر

القومي، والوطني، والعنصري، والتاريخي، وزرع في وجودها البؤر السرطانية الخبيثة، وأثقل كاهلها بالحكام العملاء، وسرّب إلى أوصالها سمومه الفكرية والعاطفية، وملأ حياتها بالمجون والترف والفسق[1].

وبالرغم من كل هذا انتج الهجوم نتيجة عكسية، فقد أيقظ الأمة وعلّمها أن سرّ وجودها هو إسلامها العظيم، وأنها لن تجد السعادة إلا في ظله.

وقد كان تأثير الهجوم الغربي لصالح الصحوة على طريقين:

الأول: إنه كشف نفسه وحضارته، وأخلاقه أمام أبناء هذه الأمة. فلقد أثبتت كل الآراء والنظم التي خططها للحياة الاجتماعية فشلها، وعقمها، وغربتها عن فطرة الإنسان، وشعور المسلم وعقليته. وهي حقيقة أدركها الاستعمار تمامًا قبل غيره، فراح يستر فشله بعملية الترقيع، أي عملية إلباس الأفكار الغربية لبوس العروبة والشرق والإسلام، مما فضح به نفسه أكثر فأكثر.

لقد أثبتت الفلسفة الغربية خواءها أمام الفلسفة الإسلامية، وأعلنت التنظيمات الغربية عن إفلاسها أمام عمق التخطيط الإسلامي. أما الحرية والإنسانية فلا يستخدمها الغرب إلا

---

(١) إنّ من كان يرى ايران في عقد الشاه يصيبه الذهول لمصير هذه الأمة، واليأس القاتل من هداها، وعودتها إلى الإسلام.

كشعارات لا مضمون لها على الإطلاق... كل هذا ترك أثره ـ بلا ريب ـ في التوعية من حيث لا يريد العدو.

الثاني: إنه دفع المؤمنين الحريصين على مستقبل هذه الأمة لاتخاذ موقف المواجهة والتخطيط الدؤوب للصحوة المباركة.

وبعد هذا الفشل لم تنفع الاستعمار كل أساليب التطبيع الخبيثة، ولم تجده نفعًا حتى الأقنعة الإسلامية، والمظاهر الخادعة التي تعلن الدفاع عن الإسلام، ولكنها تحرف الإسلام نفسه في أذهان الأمة، وتفرغه من محتواه الثوري والتغييري، فإذا بعاداته طقوس واجترار عقيم، وإذا بنظمه قيود للحياة الفردية، وانزواء عن الحياة الاجتماعية.

إنه التحريف والتخريف وهو أمر لا ينطلي على الفطرة التي سرعان ما تكتشف زيفه فينقلب الأمر لصالح الحقيقة.

وكان من جملة ما انكشف زيفه للجماهير المسلمة، تلك الصيغ الرجعية للحكم (الإسلامي)، وتلك الأطروحات البديلة المموّهة للوحدة الإسلامية، والتي صورتها للأمة وحدة بين الحكام، وراحت تعلن للأمة ـ كل يوم ـ أنها تسير على خطى تحقيق الوحدة. وتمر أعوام وأعوام، وإذا بالأمة تجد نفسها أسيرة الخداع من أول الطريق، فلا الشخصية عادت، ولا الأرض السليبة استعيدت ولا الفوارق الظالمة الاجتماعية رفعت، بل سارت الحال من سيئ إلى أسوأ، يغضب له الرب العظيم، ويفرح له الشيطان الرجيم.

نعم، فشلت كل أساليب مقاومة الهجوم الغربي بالأسلوب الغربي، لا لشيء إلا لأنها كانت من صنع الغرب نفسه، وأنى تنقذ الأمة من ورطتها الحادة الأساليبُ الشيوعية أو الليبرالية.

رابعًا: الأحداث الكبرى في العالم الإسلامي وفي مقدمتها نجاح الثورة الإسلامية المباركة بقيادة الإمام العالم الزاهد الشجاع الخميني، والتي هزت العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه وحققت حلمًا كان يبدو بعيد التحقق، من شعب أعزل، لا يملك إلا إيمانه وقبضاته العزلاء. وقد كان لهذه الثورة المباركة، الكثير الكثير من المعطيات التي أثرت أثرًا كبيرًا في تحقق الصحوة، وتناميها، وانتشارها.

وشملت تلك المعطيات الصعد الحياتية المختلفة، وأعطت الأمة الإسلامية والعالم دروسًا رائعة. إنها أكدت للشعوب المسلمة:

- قدرتها على أن تقارع أقوى القوى وتهزمها.
- وضرورة القيادة الحكيمة، والتفاف الشعب حولها.
- ولزوم تحرر العلماء من سيطرة الحكومات، ليقودوا شعوبهم.
- وكيف تتدخل يد الغيب في نصرة المؤمنين وإرعاب الطغاة.
- ونوعية ومقدار المعاجز التي يحققها الدور الفعال للشعب المسلم، في الساحة السياسية والتشريعية.
- وكيف يتلاحم مبدأ قيادة الفقيه العادل ونظام الشورى، في عملية رائعة الأثر.

ـ وكيف يتحول كل التآمر الاستعماري لصالح القضية الإسلامية.

ـ وإن الإسلام يستطيع ـ نظريًا وعمليًا ـ أن يشمل جميع الجوانب الحياتية.

ـ وكيف يتم تطهير الجو من الانحرافات الأخلاقية والاجتماعية وفضح الأنظمة التي أدعت الإسلام وخدمت قضية الاستكبار.

ـ ولزوم تقديم القرابين من أجل الإسلام، والدروس المعبرة في الشهادة والتسابق نحوها، بما لم يعهد إلا في الصدر الإسلامي الأول.

ـ وتحدي هيبة الدول الكافرة (العظمى) وتمريغ أنوفها في التراب.

وقد استطاعت الثورة الإسلامية أن تهزم كل الأساليب القومية، والوطنية الضيقة، والشيوعية الملحدة، والليبرالية غير الملتزمة، وكل الطروحات التي موّه الغرب بها على الأمة الإسلامية. كما دعت إلى توحيد المسلمين ضد العدو الكافر، بأروع الخطى في هذا السبيل، وانتهجت سياسة اقتصادية مستقلة، قائمة على أساس تحقيق الاكتفاء الذاتي، فاستطاعت أن تقف على قدميها، رغم كل أنماط الحصار والظروف القاسية التي فرضها الاستعمار وعملاؤه، وغيرت كل أساليب التعليم وأضفت عليها الصبغة الإسلامية الخالصة. وطهّرت كل وسائل

الإعـلام مـن أدران الانحـراف والتخريـف، واضـعةً أسـس إعـلام إسلامي نزيه، واتبعت نظامًا تربويًا إسلاميًا، شمل كل الجوانب. ونجحـت في القضـاء علـى التناقضـات الحـادة بـين الفئـات الاجتماعية، عاملة في سبيل الارتفاع بالطبقة المحرومة، مانعة من الإسراف وتجاوز الحد، دون أن تخرج عن الحدود الإسلامية، ولا نستطيع أن نستمر في تعداد المعطيات فهي مما لا يمكن عرضه بهذه العجالة.

كل هذه المعطيات وغيرها كثير كثير أحدثت ثورة في كل مكـان، وهـزت الجمـاهير هـزًا، وفتحـت آفـاق الأمـل نحـو الغـد الإسـلامي، الأمـر الـذي لاحـق شـبحه الاسـتعمار وعمـلاءه في كـل مكان، فـراح يعيـد النظـر في حسـاباته مـن جديـد، بعـد أن اعلنـت عقوله الالكترونية المعقدة فشلها في تقرير الموقف الجديد.

على أننا يجب أن لا ننسى وجود بعض العوامل الأخرى للصحوة، ولكنها ـ مهما تسامت ـ ثانوية جدًا، لا تستطيع أن تحظى بهذا الشرف الكبير.

الإمام الخميني (رضي الله عنه) والصحوة

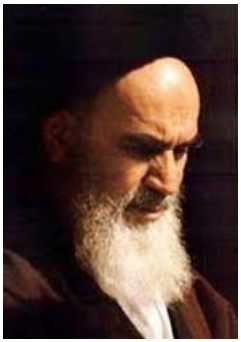

إن الإمام، وإن كان شخصًا عظيمًا، إلا أننا هنا لا نبحث عن جوانب العظمة فيه بقدر تلمسنا لأبعاد رؤيته للواقع، وبرنامجه لتطوير هذا الواقع، ومدى تحقيق هذا البرنامج واقعًا أو مدى ما يمكن تحقيقه منه مستقبلاً، وذلك لكي تتضح رؤيتنا للصحوة الإسلامية في أي منطقة من عالمنا الإسلامي، أو بالأحرى من امتدادنا الإسلامي حتى في المساحات الأخرى.

أولاً: مما لا ريب فيه أنه (رحمه الله) كان يمتلك تصورًا متكاملاً عن قضية الصحوة بكل أبعادها، وهو ما يشهد له استقراء كلماته ومواقفه وخططه الثورية. فالمتتبع لكلماته في مطلع دخوله ساحة العلن الكلامي، وقيامه بتأليف كتبه يشهد وحدةً في نمط الكلام من الوضوح والنفوذ إلى عمق المشكلة القائمة والتركيز على التركيبة الروحية للفرد والمجتمع – من جهة – وعلى سر المشكلة من جهة أخرى.

والمتتبع لمواقفه يجدها وكأنها تشكل خطوات متتابعة مرسومة من قبل، تتناغم مع الظروف، وتتصاعد مع الحوادث، إلا

أنها كلها يربطها خيط واعٍ واحد، ولا أدل على ذلك من استعراض مواقفه من نفسية الشعب الإيراني، من جهة، والنظام الشاهنشاهي البائد من جهة أخرى.

وهكذا يمكن ملاحظة تخطيطه الحديث الذي سار بعملية التوعية الفكرية منذ البدء وحتى الختام، والذي استهدف إثارة الحماس الثوريّ بالمدى المتناسب مع ما تسمح به الظروف المتغيرة والمناسبات الإسلامية، ومن ثم التخطيط لتحويل ذلك الحماس إلى فعل جماهيري حاشد مزق كل الحسابات البشري، وبالتالي صنع أروع ثورة عرفها التاريخ المعاصر، حيث تحرر الشعب الإيراني المسلم من طوق الهيمنة العالمية عليه.

ثانيًا: إن الإمام يؤمن تمامًا بمبدأ وحدة الآمال والآلام في دائرة العالم الإسلامي فهو يقول (حين يتحدث مع سفراء الاقطار الإسلامية بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ):

«إننا نعتبر الأقطار الإسلامية جميعًا جزءًا من وجودنا دون أن يعني ذلك أن تفقد وجودها المستقل، وإنما نريد لها أن تتمتع بما تمتع به الشعب الإيراني من مزايا الخلاص من براثن القوى الكبرى، وقطع أيديها عن منابعه الحياتية، نريد لهذه الحالة أن يتسع مداها لتشمل كل الشعوب، إننا نعني بتصدير الثورة أن تستيقظ كل الشعوب وكل الحكومات وتتخلص من قيود التبعية والتسلط».[1]

---

(١) من كتاب (كلام الإمام) ج١٥، ص٣١٧.

وفي حديث آخر يقول سماحته وهو يتحدث إلى سفراء الجمهورية الإسلامية – قائلاً:

«إننا ثرنا لنحيي الإسلام ومن ثم لنصدر الثورة بمشيئة الله إلى كل مكان، ذلك أننا إخوة وأحبة، مما يزيد فينا الأمل للعمل سوية وبكل ما نستطيع لتعميم هذا الجهاد وتحقيق هذا الهدف».[1]

بل كان (رض) يرى أن بالإمكان تعميم هذا التصدير إلى كل الشعوب فيقول بمناسبة عيد الفطر عام ١٤٠٠ هـ:

«إننا إذ نعلن عزمنا على تصدير الثورة إلى كل الأقطار الإسلامية بل كل الأقطار التي يرزح فيها المستضعفون تحت نير المستكبرين، فإنما نريد من ذلك أن نحيي في الشعوب روح التحرك ضد المستكبر الفتاك، ونردم تلك الهوة بين الشعب والحكم المسلط عليه».[2]

تصدير الثورة الذي يعنيه الإمام هو ـ إذن ـ التأكيد على وحدة المسير والمصير في عالمنا الإسلامي.

والذي نريد أن نخلص إليه؛ أن الإمام الخميني إذ يتحدث عن الثورة الإسلامية في إيران وعن مزاياها وخصائصها ودوافعها، ومحركاتها ونتائجها وعوائقها وموانعها فإنه إنما يتحدث عن

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) المصدر نفسه، ص٣١٦.

مسيرة الصحوة الإسلامية عبر مصداق من مصاديقها وتطبيق أمثل لها في إيران، وهو بالتالي يبرز نظريته العامة في مجال الصحوة الإسلامية ومن هنا نجده – رحمه الله – يؤكد مثلاً أن ما نشاهده من تخطيط لضرب الثورة إنما هو تخطيط لضرب الإسلام والصحوة الإسلامية عمومًا، والقضاء على كل أملٍ للجماهير المسلمة في صياغة تشكيلة حكومية إسلامية في أي مجال آخر.

فهو يقول مخاطبًا مجموعة من الإخوة الباكستانيين في خريف عام ١٩٨٠:

«هل تتصورون أن هدف الخطط الاستعمارية هو القضاء على إيران؟ كلا، إن الهدف هو القضاء على الإسلام، فليس الأمر يقتصر على قطر واحد فحسب، إنه يعم الأقطار الإسلامية جميعًا».[1]

ومن هنا جاز لنا أن نعمم حديثه إلى مجموع العالم الإسلامي حتى ولو كان يتحدث عن الثورة الإسلامية في إيران وعواملها ونتائجها.

ثالثًا: إننا إذا شئنا أن نتعرف على منهج أو خطة أو أبعاد شخصية معينة فلا بد من تتبع أقوالها وأفعالها وتقريراتها، لنقوم ـ بعد التأكد من دلالاتها ـ باستنباط مجمل الأبعاد، ومعرفة

---

(١) كلام الإمام، ج١٥، ص٤٦ – ٤٧.

أجزاء النظرية المتكاملة، وهذا بالضبط ما يجب أن نفعله عندما نحاول اكتشاف مذهب معين أو نظامٍ عام للإسلام. ذلك أن علينا أن نكتشف هذا من خلال مجموعة النصوص النظرية أو المفهومية المطروحة، والأحكام المتفرقة المبنية على ذلك المذهب أو التي تشكل أبعاد النظام، وبالتالي أن نلاحظ نوع التطبيقات الفعلية التي قبلها الإسلام ونفذها في الحياة. وبنفس هذا الأسلوب نستطيع أن نكتشف أبعاد الشخصيات المنظّرة، ونعرف مجمل نظراتها إلى الواقع والحياة، وهذا ما نرجو أن نتبعه في دراستنا السريعة هذه، راجين التوفيق، وتسدّ ثغراتها.

حقيقة الصحوة

قلنا إن أمتنا الإسلامية مرت بفترات زمنية طويلة، عمتها غفوة، وشملها تخدير وضياع مقيت، يهتز له القلب ألمًا.

فالفهم الإسلامي الصحيح غير متوفر، إلا على صعد فردية محدودة المجالات، وحينئذ فمن الطبيعي أن لا تجد تعاليم الإسلام المحيية للنفوس مجالها الطبيعي المؤثر في القيام ببناء النفوس والمجتمع.

والتجزيئية؛ تعمل عملها الخبيث في تمزيق الفرد المسلم من كل الجهات، فهو ممزق في رؤيته الكونية، وقد أراد له الإسلام أن يتخذ رؤية واحدة تجاه الأشياء. وهو ممزق في شخصيته، حائر بين الالتزام بقوانين السماء والاتجاه مع الواقع الفاسد والولاءات

متعددة وآلهة التاريخ في كلمات الإمام الخميني وهو يتحدث عن إيمانه بمستقبل الصحوة، ومظاهر الصحوة وثمارها، وعواملها وأسلوب ترشيدها والحفاظ عليها والأخطار التي تواجهها من قبل أعدائها.

فمن الظواهر التي أكدها الإمام الخميني في كلماته، وسعى بجد لتحقيق الإيمان بها في ذهن الجماهير؛ موضوع الإيمان بمستقبل الصحوة الإسلامية، بحيث لا تشوبه أية شائبة ولا يساوره أي شك في تحقيق هذا الغد المرتقب، وطبيعي أن الأمل الكبير يلعب دوره في تحريك الهمم نحو صنعه ويشد العزيمة على تحقيقه.

فنجده تارة يذكّر بالوعد الإلهي الذي لا يتخلّف مطلقاً، باعتباره قاعدةً لهذا الأمل الكبير، فيقول في رسالته التي وجهها بمناسبة قيام الجمهورية الإسلامية وذلك بعد أشهر من نجاح الثورة الإسلامية:

«إن الله تعالى قد وعد بانتصار المستضعفين على المستكبرين بتوفيقه ووعده وجعلهم أئمة، وها هو الوعد الإلهي يقرب من تحققه، اننا لنأمل أن نشهد نحن هذا التحقق».[1]

وأخرى تنبأ بالانتصار حتى على القوى العظمى فيقول في حديثه لمجموعة من أعضاء حركة أمل اللبنانية (أواخر عام ١٩٨٠):

«يجب أن نحذف من قاموسنا منطق الهزيمة القائل بأننا لا

---

(١) كلام الإمام ج١، ص٢٤.

نستطيع مجابهة القوى الكبرى، إنكم إذا شئتم حققتم ما تريدون بإذن الله».[1]

ونجده (رحمه الله) تنبأ بسقوط المعسكر الشيوعي وانهياره بسرعة وذلك قبل تحقق هذا الانهيار الذي شهدناه، فقد أرسل رسالته المشهورة لغورباتشوف في مطلع عام ١٩٨٩ وهي إحدى الرسائل النادرة التي بعثها إلى زعماء الدول، وقد قال له فيها بالحرف الواحد:

«إن البحث عن الشيوعية ينبغي أن يتوجّه من الآن فصاعدًا إلى متاحف التاريخ».[2]

وربما كانت هذه الرسالة من أعظم الوثائق التي تؤكد لنا أن المؤمن الصادق ينظر بعين الله تعالى فيفتح الله له آفاق الحقيقة.

ومن ثم نجده (رضى الله عنه وارضاه) يركز عنصر الإيمان بنمو الانتفاضة الإسلامية في كل مكان، ويبشر دائمًا بانفتاح الآفاق أمام الصحوة بعون الله.

ففي عام ١٩٧٠ يجيب عن رسالة للطلبة الجامعيين المسلمين في أوروبا فيقول:

«إنني – على الرغم من شيخوختي وعدم حصولي على ما كنت آمله – لآمل بكل ثقة أن تستمر شعلة هذه النهضة التي

---

(١) كلام الإمام ج١٥، ص٢٦١.

(٢) التوحيد، العدد ٥٣، ص٧.

انطلقت في السنين الأخيرة بتأييد الله تعالى وأدت للتقارب بين العلماء والمثقفين».[1]

ويتحدث الإمام الخميني عن الثورة الإسلامية وانتصارها عام ١٩٧٩ فيقول:

«لقد تحقق ذلك على الرغم من الحسابات المادية التي كانت تطرح استحالة أن تنهار قوة تقف القوى كلها مساندة لها، وحتى الحكومات المنتسبة للإسلام أيضًا كانت تقف موقف الدعم لها ولكنها انهارت بالتالي».[2]

ويقول في كتابه *ولاية الفقيه* والذي كان الموجّه الكبير لقيام الثورة الإسلامية:

«أنت أيها الشعب إذا أصررت على الطريق المستقيم وقمت بالأمر فانك ستمسك أزمة الأمر بيديك، وستصدر منك الأمور وإليك تعود، وإذا تحققت الحكومة التي أرادها الإسلام فإن الحكومات الفعلية في العالم لن تستطيع الوقوف أمامها».[3]

ويقول أيضًا مخاطبًا الطلبة الجامعيين في أمريكا وكندا في ١٧/ رمضان/ ١٣٩٥هـ:

«إن نقطة الوضوح التي تزيدني في أواخر عمري أملاً تتركز في هذا الوعي واليقظة التي تسري في هذا الجيل الشاب، إنها روح

---

(١) كلام الإمام، ج٦، ص٢٨.

(٢) كلام الإمام، ج١٥ ص٦٦.

(٣) كلام الإمام، ج١٠ ص٣١.

سارية بكل سرعتها وهي بحول الله تعالى ستصل إلى نتائجها الحتمية فتقطع أيادي الأجانب وتبسط العدالة الإسلامية».[1]

وفي بيان أصدره إلى عموم الشعب الإيراني في عام ١٩٧٢ – أي قبل سبع سنوات من الانتصار – يقول:

«إنكم تملكون طاقات شابة عظيمة تستطيع أن توصل الإسلام والبلاد إلى أوج العظمة والعزة وتقطع أيدي الجناة عن البلاد الإسلامية وبلدكم أنتم، تلك الطاقة التي لو بُذلت في طريق الحق لتحولت إلى طاقة أبدية واتصلت بالقدرة الإلهية الأبدية... فاستيقظوا وايقظوا الغافلين.. عودوا أحياء وامنحوا الحياة للأموات، وانطلقوا تحت لواء التوحيد لتطووا ملف الاستعمار بنوعيه الأحمر والأسود».[2]

ويقول في لقائه الضباط الباكستانيين أوائل عام ١٩٧٩:

«على المسلمين أن ينهضوا فهم منتصرون في نهاية المطاف وسينتصرون.. وإن أمريكا لن تستطيع أن تقف في قبال المسلمين».[3]

وهكذا نجده مطمئنًا واثقًا بمستقبل الصحوة الإسلامية، ساعيًا بكل قوة وبمنطق سليم لتعميق هذا الإيمان في نفوس أبنائه الثوار.

---

(١) كلام الإمام، ج١٠ ص٦٩، وكتاب نداء الثورة، ص١٩٨.

(٢) كلام الإمام، ج١٠ ص٦٥ وكتاب (الخميني والثورة) ص١٠٢.

(٣) كلام الإمام، ج١٥ ص١٦٧.

ومن غريب الأمر أن الاستعمار حاول أن يتغافل عمق الصحوة الإسلامية، ومدى اتساعها، بل الأغرب من ذلك أن نجد بعض المنتمين إلى المدرسة الرجعية يحاولون جاهدين انكار حدوث صحوة إسلامية مطلقًا.[1]

والإمام يعتبر هذه الغفلة الاستكبارية تغافلاً يجب على المسلمين أن يردوا عليه ردًا عمليًا.

فهو يقول في جوابه على الرسالة التي وجهتها إليه المنظمات التحررية في أنحاء العالم والتي عقدت اجتماعها في الجزائر أوائل عام ١٩٧٩ ما يلي:

«إننا نعدّ عدم إدراك عمق النهضة الإسلامية في العصر الحاضر والجيل المعاصر أحد الأخطاء الكبرى للسيد كارتر وأمثاله، وإن على الشعوب الإسلامية – عبر وحدتها الإيمانية المستمدة من الله – أن تخرج هؤلاء من غفلتهم.

فيا أيها المسلمون في أنحاء العالم ويا أيها المستضعفون الثائرون، ويا أيها البحر الإنساني اللامتناهي، انهضوا ودافعوا عن كيانكم الإسلامي والوطني».[2]

ولكن لمَ هذا التغافل والتجاهل؟ الحقيقة هي أنه يستهدف أن لا تعي كل الجماهير حقيقة ما يحدث، وإلا فإن النهضة

---

(١) حاول بعض مفكري النفط أن يعلن ذلك بصراحة في مؤتمر الفكر الإسلامي في الجزائر فتم التصدي لدعوته وفضحها.

(٢) كلام الإمام، ج١٥ ص١٦٧.

ستسري سريان العافية في العروق اليبيسة، والنار في الهشيم، وهو ما أصر الإمام الخميني على توضيحه أمام الجماهير. إنه يقول في حديث له أمام عوائل الشهداء عام ١٩٨١:

«إن هؤلاء يرون حديث سقوطهم وفنائهم في كل مكان من العالم، فحتى السود في أمريكا يعلنون بذلك، إنهم يرون الإسلام قدرة متقدمة تعبّئ الشعب والأجنحة المتدينة والعناصر المظلومة وإننا لنرجو بمشيئة الله أن يؤدي هذا لثورة المستضعفين في العالم للقضاء على القوى الطاغية.. إنهم يخافون من هذا التحرك...».[1]

وهكذا راح يستعرض مظاهر هذه النهضة والصحوة ليؤكدها في وعي الجماهير:

أ – التحرك الإسلامي الواسع

من أهم المظاهر التي أكد عليها وعلى قوتها، هذا التحرك الجماهيري الإسلامي في عدة أماكن من العالم الإسلامي ومنها هذه الثورة الإسلامية الكبرى في فلسطين. وكلنا يعلم أن الإمام عاش لهذه القضية وسخر لها طاقاته وبقي وفيًا لشعاراته الواضحة حتى انتهاء حياته، وأوصى بها بعد وفاته. إنه أعلن أن إسرائيل غدة سرطانية يجب اقتلاعها وأن المسلمين قادرون – مهما عتت أمريكا وإسرائيل – على القضاء على منبع الفساد هذا. وكم

(١) كلام الإمام، ج١٥ ص٢٢١.

كان يتألم حينما يرى هذا التخاذل والتراجع المستمر!! وعلى أي حال فإن الإمام الخميني (رحمه الله) كان يأمل كثيرًا في هذه الصحوة الإسلامية في الجماهير الفلسطينية، وكان يعتبر ذلك سبيل الخلاص الوحيد، وملف القضية الفلسطينية في أقوال الإمام واسع جدًا لا يمكننا أن نستوعب حتى جزءًا يسيرًا منه.[1]

إنه يعتبر يوم القدس يوم الإسلام ويوم الحكومة الإسلامية التي ستسود العالم الإسلامي كله، يوم قهر القوى المتجبّرة، ويوم انطلاقة المسلمين من عقالهم لإحقاق حقوقهم ويوم الرد العملي على تغافل القوى الكبرى لحقيقة الصحوة الإسلامية.[2]

ومن أنماط ذلك التحرك الواسع ثورة الشعب الأفغاني المسلم بوجه الطغاة الملحدين، بل وقوفه أمام القوة الشرقية العظمى بكل جبروتها وبمنتهى الضعف في السلاح والقوة في العزيمة، مما أدى في النهاية إلى انهيارها.

وهنا يخاطب الإمام الخميني كارتر قائلاً:

«من المستحسن أن يعتبر كارتر بأفغانستان: حيث الحكم المسلط يدعمه الاتحاد السوفيتي والأحزاب الشيوعية واليسارية... إلا أن هؤلاء لم يستطيعوا أن يخضعوا الشعب الأفغاني المسلم لإرادتهم».[3]

---

(١) تراجع الكتب الكثيرة المؤلفة في هذا الشأن، ومنها الجزء ١٩ وهو تحت عنوان (كلمات الإمام في فلسطين والصهيونية).

(٢) كلام الإمام، ج١٩ ص١٢٩.

(٣) كراس (القيادة وأفغانستان) ص٦ من حديث للإمام مع طلاب كلية الإلهيات أواخر عام ١٩٧٩.

ويقول في رسالته إلى حجاج بيت الله الحرام عام ١٤٠٤هـ:

«لقد رد الشعب الأفغاني العدوان السوفيتي الغادر، عدوان تلك القوة الاسطورية والجيش الضخم والحكم الغاصب والحزب الخائن، رده بقدرة الإيمان والتوكل على الله العظيم والاعتماد على النفس بحيث يمكن القول ان الاتحاد السوفيتي يعيش الآن الحيرة والندم على هجومه الظالم، وهو يحار كيف ينقذ نفسه ويحفظ ماء وجهه».[١]

ب – انتفاء الأساطير الاستعمارية:

ومن مظاهر الصحوة الإسلامية هذا الوعي السياسي الكبير لحقائق الأمور وانتفاء الأساطير التي حاول الاستعمار زرعها في النفوس من قبيل: أسطورة إسرائيل التي لا تقهر، وأسطورة انحصار سبيل السعادة بأحد المذهبين الرأسمالي أو الاشتراكي، وأسطورة (التخدير الديني) و(تضاد الاتجاه الديني والثورة) وأسطورة انحصار السبيل بالمعسكرين دونما ثالث.

وهنا يقول الإمام الخميني (رحمه الله) في رسالته بمناسبة يوم القدس العالمي في أوائل العقد الثامن من هذا القرن:

«إلى متى تسحر أسطورة الشرق والغرب الكاذبة المسلمين الأقوياء وتوحشهم الأبواق الإعلامية الجوفاء»[٢] وفعلاً فقد حطمت الثورة الإسلامية هذه الأسطورة.

---

(١) المصدر نفسه، ص١١.

(٢) كلام الإمام، ج١٥ ص٣٢٠.

جـ – معالم كبيرة أخرى

ومن يستعرض كلمات الإمام التي تركز على معالم الصحوة الإسلامية يستطيع اكتشاف الكثير من هذه المعالم:

ـ فهذا الاتجاه العام نحو تفهم الإسلام ومعرفة جوانبه الحياتية.

ـ وهذا الاتجاه الصارم للقطاعات المختلفة، وخصوصًا قطاع الجيل الشاب نحو تطبيق الإسلام، على كل شؤون الحياة الاجتماعية والفردية، والنظر للإسلام كمنقذ من كل المهالك والمشاكل التي تورطت فيها مسيرة الأمة. كل هذا بعد الجهود الكبرى التي بذلها الاستعمار لكي تنسى الأمة إسلامها.

يقول (رحمه الله) مخاطبًا مجموعة من حراس الثورة عام ٧٩:

«إن الإسلام كاد أن ينسى وكادوا يقضون عليه، وكادوا يهجرون القرآن، إلا أن ثورتكم يا شباب إيران، ونهضتكم يا أبناء الشعب الإيراني – وهي نهضة إلهية – أحيت القرآن وأحيت الإسلام وأعطت الإسلام حياة جديدة».[1]

ـ وهذا التفهم الواعي لدور قوى الاستكبار العالمي، في التخطيط لإفناء الشخصية الإسلامية ثم العمل على امتصاص دمائها.

وكذلك تفهم الطاقات الضخمة التي تملكها الأمة المسلمة، ونوع المرحلة التاريخية التي تعيشها.

ـ وكذلك هذا الترابط الاحساسي والشعوري بين أفرادها، حتى ليهتز المسلم اليوم في أقصى المعمورة لألم المسلم في الجانب الآخر منها.

---

(١) كلام الإمام، ج١٠ ص٣٧٨.

ـ ثم هذا التخطيط الحثيث هنا وهناك لاستعادة المجد الإسلامي، وإقامة الدولة الإسلامية الموحدة على كل الأرض الإسلامية.

ثم هذا التخطيط العلمي الرائع للتقريب بين المذاهب الإسلامية وتطبيق قاعدة. نتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذر بعضنا فيما اختلفنا فيه.

.. ورغم اختلاف مستويات التخطيط فإنها تكشف جميعها عن التطلع والعمل على صنع المستقبل.

وهذه الحرارة الثورية المتصاعدة، والتي راحت تقضّ مضاجع اللصوص الكبار، وتهز عروش العملاء الصغار، وتمزق استار المتسترين والمتبرقعين، إنها حرارة الخشوع والتضحية والفداء في سبيل العقيدة، وهي تستمد أوارها من انطلاقة المسلم في الصدر الأول نحو الجهاد في سبيل إعلاء راية الإسلام، ناسيًا دنياه ومتعه، في سبيل متعة تحقيق الهدف السامي العظيم.

يقول الإمام الخميني في رسالته إلى الشعب عام ١٩٨٠:

«إنني لأخجل حقًا حينما أشاهد هذا الجيل الشاب الذي يطالبني – وهو في عنفوان شبابه – ان أدعو له كي يرزق الشهادة».[١]

ويقول أيضًا مخاطبًا الشبان:

«أنتم ذخائر الإسلام وإن هذا التحول الذي حدث بين شبابنا إنما هو صنع إلهي».[٢]

---

(١) كلام الإمام، ج٦ ص١٠٦.

(٢) كلام الإمام، ج١٠ ص١٣٩.

وأخيرًا وليس أخرًا؛ هذا الاتجاه الجماهيري نحو تعميم الأخلاق الإسلامية على المجتمع، ونفي مظاهر الطاغوت والعصيان، إذ رأينا الحجاب الإسلامي يسري سريان العافية في أوصال المجتمعات الإسلامية، ورأينا النفور من مظاهر الخلاعية والخمر والميسر وباقي العادات السيئة، يمثل ظاهرة إسلامية ضخمة. وأضحت المرأة المسلمة في طليعة الثائرين حتى قال فيها الإمام الخميني «أنتنّ قدتن الثورة الإسلامية».[1]

يقول الإمام الخميني في حديثه إلى مجموعة من المحرومين في أواخر عام ١٩٧٩:

«إنكم إذا أمعنتم النظر فستجدون قادة القوى العظمى يعيشون الاضطرابات والقلق، إنه ليقلقهم أن تنطلق جماعة تعمل باسم الله ولا ترجو إلا ثوابه. إنها نعمة إلهية ولن نستطيع أن ندرك عظمة النعم الإلهية الخفية».[2]

كل هذه المظاهر أشار لها الإمام وعمل على تكرارها على مسامع العالم ليحقق غرض العزة والشعور بالكرامة والثقة بالمستقبل في نفوس جماهير الأمة، في حين يبعث الرعب في قلوب المستكبرين، وللرعب جيش لا يقهر وله دوره الذي تحدثنا عنه الآيات القرآنية الشريفة في دحر العدو.

---

(١) كلام الإمام، ج٦ ص٨٤.

(٢) كلام الإمام، ج١ ص٥٠.

الصحوة الإسلامية

آفاقها المستقبلية وترشيدها

محمد العاصي*

مما لاشكّ فيه أن المسلمين البالغ عددهم مايربو على المليار والنصف مليار مسلم تتوزعهم دول قومية ومؤسسات أجنبية ومصالح آنية متنافرة وبعضها متناقضة، وزد على ذلك أن هؤلاء المسلمين بأعدادهم المتكاثرة لم يبذلوا جهدًا مشكورًا ولا اجتماعًا ميمونًا في لمّ الشعث ورأب الصدع ورص الصف. ولهذه الأسباب العامة وغيرها أضحى الواقع في دنيا المسلمين واقعا تنهش فيه أنياب التفرقة ومخالب التجزئة.

لا يخفى على المراقب البصير لأحوال المسلمين أن الإرادة والمشيئة التي ضمنها الوحي الإلهي والدستور التشريعي مفقودة واقعًا وتنفيذًا وإن كانت محفوظة تنظيرًا وتأويلا!

الكلمات القرآنية التي أفسحت لنا مجال هذه المشيئة هي: ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر..﴾

---

*- مفكر وباحث من اميركا.

(الكهف) هذه الآية في واقع معناها تفتح الباب واسعًا لمن أراد أن يلزم نفسه بأمانة إلهية، ولمن أراد أن يحلّ نفسه منها! المشكلة المستشكلة في عوام المسلمين وخواصهم هي أنهم يحال بينهم وبين التعبير عن إيمانهم والالتزام بإيمانهم والتبشير بإيمانهم والأحضّ من ذلك أن إيمانهم لا يجوز له أن يتبعه عمل صالح.

والإيمان من غير عمل صالح هو كسحاب من غير مطر أو كشجر من غير ثمر!

إن القوانين الصارمة والمؤسسات السياسية والعسكرية القاهرة التي فرضت نفسها على حياة الناس من المحيط الهادىء إلى المحيط الأطلسي جعلت كثيرا من الناس يلجأون إلى الحلقات السرية وإلى التنظيمات الخفية وإلى المواجهات العنيفة لكي يقولوا (ربنا الله)!

إن مايسمّى «التطرف» ليس وليد أحوال عادية ولا ظروف طبيعية ولا مجتمعات فطرية!! إن مايسمى «التطرف» – والذي إذا استمرت وقويت شوكته فإنه سيأتي على الأخضر واليابس – إن هذا «التطرف» هو ارتداد أو ارتجاع طبيعي ناشئ عن القمع والبطش والظلم، الذي يشكّل بحدّ ذاته تطرفًا آخر لا تجيزه قوانين دولية ولا تشريعات سماوية! لم يكفنا أن حكومات لابيعة لها فرّقت المسلمين إلى مايربو على خمسين دولة قومية علمانية منكرة للحكم الإلهي والاجتهاد الإنساني ضمن المرجعية الإسلامية ولكن هذه الدولة والحكومات المفروضة بحدّ السيف

وبغياب البيعة هي ذاتها المسؤولة عن تفريق المسلمين (مواطنيها وتابعيها) إلى جماعات سرية وأحزاب تقيه تحاول جهدها أن تقوم لله...

يخطئ من يظن أن «التطرف» ظاهرة شباب طائش أو جهلة غفلة! وقد يكون بعضهم كذلك. ولكن الرؤية بآفاقها الواسعة تكشف لنا أن التطرف مؤسسة حكومات وأنظمة تخنق الأجواء الاجتماعية والأقاليم الجغرافية والاتساعات الفكرية بقوانين استثنائية وحالات طوارئ لها أول وليس لها آخر ولها مبتدأ وليس لها خبر!!

في هذه الأجواء الكالحة والمدلهمّة يجدر بأصحاب القرار والقوة المادية أن يفوتوا على الشيطان مآربه، وعلى أقرانه مفاسدهم وذلك بعودة الحكام والمحكومين إلى ربهم ليحكم بينهم فيما اختلفوا فيه، وليحكم بينهم بالعدل. إن الملوك وأعوانهم والرؤساء وأعيانهم ليسوا فوق كتاب الله وسنة ورسوله. فِلمَ إذن هذا الشرخ الخطير بين الحاكمين بأمرهم والخاضعين له؟

إن هذا الفصام المنكر هو الداء العضال الذي استشرى في المجتمعات الإنسانية و«الإسلامية» حتى وصل بنا الحد أن بدأ أبناء جلدتنا و«ديننا» ينحازون إلى فريق من ﴿الذين أوتوا الكتاب﴾ ويبررون سياساتهم الداخلية والخارجية على قاعدة أن المعارضين لهم «متطرفون» أو «إرهابيون» أو «متعصبون» تجوز محاربتهم والقضاء عليهم.. وإذا استمر الحال هكذا سيصبح المسلمون كلهم في حرب داخلية أو حرب أهلية لا تبقي ولا تذر..

تطرف الحكومات ولّد تطرف التحزبات

لا ينجرفنّ أحد في الموجة الإعلامية العارمة التي تريد منا أن نؤمن بأن الجماعات الإسلامية والجهادية هي الآن وحدها في الدنيا أساس العلة وسبب القلة وانحراف الملة!

إننا نقول على رأس الأشهاد بأنه لو سمح للفكر الإسلامي أن يعبر عن نفسه وينطق بمضمور أفكاره ويفصح عن مكنون أسراره، لو سمح لما اعتاد الناس على وصفهم بالإسلاميين، لو سمح لهم أن يناقشوا أقرانهم وأعداءهم سواء: الرأي بالرأي والحجة بالحجة لتشكّل التاريخ وتطور غير الذي نراه الآن.

إن الدكتاتورية والاستبداد تطرف أي تطرف . وحصيلة هذا التطرف الرسمي هو تطرف شعبي والفارق بينهما أن الأول ينزع إلى سياسات قد تصل إلى الإبادة، والثاني يلجأ إلى ردات فعل هي أقرب إلى إثبات الإرادة.

هذه الفجوة بين منتزعي الأمر (وليسوا أولي أمر) وبين المغلوب على أمرهم عمل فيها التاريخ عمله حتى أضحت الفجوة هوة سحيقة! وهذا الفاصل بين الفئة الباغية وعامة الناس أصبح مرتعًا لكل من أراد بأهل الإيمان سوءًا. فترى الآن قوى الاستكبار والطغيان تحاول جهدها أن تشق طريقها بين المستبدين (سلاطين السوء) والمستبد بهم (جماهير الناس) . فهاهي أمريكا حكومة وعسكرًا بلسان رئيسها جورج بوش الابن يتكلم عن إعطاء المسلمين حريتهم ومنحهم تقرير مصيرهم والتكرّم عليهم بالخير

والازدهار الاقتصادي والسؤدد!!

إن الامبريالية التي تتستر بالإنجيل والصهيونية التي تموه نفسها بالتوارة تحاولان الآن أن تمنّا على المسلمين أن وهبتهم الحرية والاستقلال والسيادة!

﴿يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين﴾ (آل عمران/ ١٠٠).

هذه الأيام والأعوام هي أشد وطأ من سابقاتها. فالظلم الذي عشعش في ديار المسلمين لأجيال وقرون قد ولّد في نفسية وعقلية الناس – أو بعضهم – قابلية الاستجابة للشيطان (الأكبر) إذا دعاهم.

﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾.

يحسن بنا هنا أن نواكب التنزيل المفصل فهو سبحانه يقول: ﴿... إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب يردّوكم بعد إيمانكم كافرين...﴾ (٣/١٠٠).

والطاعة يطلبها أصحاب القوة والنفوذ والجبروت. فالفئة أو بتعبير التنزيل العزيز (الفريق) الذي قد يستهويه الذين آمنوا هم شريحة من المنتسبين للكتاب المقدس حال كونهم أكابر ومستكبرين. سلطات تنفيذية ومؤسسات مالية ربوية وقيادات عسكرية بطاشة، هؤلاء هم الذين يلوحون لنا نحن المسلمين أن نطيعهم بعد أن نحسن الظن بهم أملا في غد أفضل ومستقبل أكرم!

الانتهازية

لاشك أن بين المسلمين ضعاف النفوس، متهالكي القلوب ومتهافتي العقول. هؤلاء هم الذين يمدون أيديهم لكل من ينتهك حرمات المسلمين، ظانين أن طوق النجاة من القوى الغاصبة آتية لامحالة! إن ولاء أمثال هؤلاء هو رهن القوة الغاشمة التي دأبت في القرون الأخيرة على إقامة الحجة على عدوانيتها ودمويتها وكونها لا ترقب في مؤمن إلاّ ولا ذمة.

كيف يصح من بعض المسلمين ثقتهم بأعداء الله وأعداء رسوله (ص) وأعداء الإنسانية؟ إن القوة المادية تغرب ضعاف الإيمان وتستميلهم إلى صفها. وهذا ما نراه اليوم عندما يلتف أمراء ووزراء مسلمون حول الكتلة الإمبريالية والصهيونية التي أصبحت الآن مكشوفة النيات ومفضوحة المخططات. لقد عملت معاول الهدم الاجتماعية عملها لقرون وقرون حتى فصمت الشعوب عن الملوك . وإلا كيف نفسر تصرف هؤلاء الملوك وحاشيتهم وهم يرقصون لنغمة كل غاصب لحقوقنا ومحتل لأرضنا وسارق لثرواتنا؟ طبعًا هذه الحالة قد تولد فئة من ضعاف الإيمان تريد أن تلتحق بركب من تظنهم منتصرين.

هؤلاء هم أول المصفّقين لكل من يفرض أمره الواقع بغض النظر عن الحلال والحرام أو الكفر والإيمان.

ويليهم أولئك الذين يفلسفون استسلامهم. هؤلاء يقولون بملء فيهم: إن الظلم – ظلم ذوي القربى – لم يعد يطاق .. وإذا لم

نستطع نحن المسلمين أن نرسي قواعد العدل والإحسان في مجتمعاتنا ونحكم أنفسنا بأنفسنا بالحسنى فلم يعد أمامنا إلا أن نقبل مضطرين القوى الخارجية أو الأجنبية التي – وإن كانت لنا تحفظات عليها – فهي بعد كل هذا تبقى إنسانية وليبرالية وستتصرف بأمورنا وشؤوننا بطريقة وبمنهج هو في النهاية لصالحنا، ولا يفوتنا الأمم دول: فيوم لك ويوم عليك.. وبعد ذلك يحدث الله أمرًا.. هذا المنطق كله ساذج وجاهل. ساذج لأنه لا يعترف بتصرف القوى المهيمنة والاستكبارية. لينظر حوله في أي أقطار أو دول العالم ليرى أن أمريكا ما دخلت قرية إلا أفسدتها وجعلت أعزة أهلها أذلة وكذلك دأبها. هاهي الشواهد: في أمريكا اللاتينية؛ البرازيل الغارقة إلى قمة رأسها بالديون الربوية المستحقة لأمريكا، فقر واستغلال وفاحشة بالرغم من مواردها الطبيعية الثرة، وسكانها الكثيف وكاثوليكيتها العارمة. لا شيء من ذلك لم يحل دون مئات المليارات من الدولارات التي تكدست وأصبحت دنيا لأمريكا الرأسمالية الربوية. وتتنافس مع البرازيل في عبوديتها للطغيان الأمريكي كل من الأرجنتين والمكسيك، وهي الأخرى تغوص في لجج من الدين لا يعرف لها قرار.

هذه شهادات على أمريكا وليست لها.

زد على ذلك ما تقوم به السياسات الأمريكية في القارة السمراء... هناك سرقة منظمة وخلف الكواليس بعيدًا عن أعين

الناس، بموجبها تنهب أمريكا المعادن الثمينة والنفط بقليل أو كثير من المنافسة الأوروبية . الحروب الدموية والمعارك القاتلة التي يشتعل أوارها في ساحل العاج وفي ليبيريا وفي الكونغو وفي مناطق أخرى ماهي إلا دليل آخر على سياسة التغوّل الاقتصادي الذي يسيّر الساسة في البيت الأبيض وفي البنتاغون وفي وزارة الخارجية وفي غيرها من الإدارات الأمريكية المتعاقبة.

وهو منطق جاهل لأنه يتناسى أن ـ القوى العظمى ـ في التاريخ تتصرف وكأنها نسخة تتكرر من عصر إلى عصر ومن قارة إلى أخرى.

﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعًا يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾.. (القصص) هناك نمط يكاد يكون ثابتًا يتلبس الجبارين في الأرض. وهذا النمط السياسي هو في علوّ الحاكم المطلق في الأرض ثم في سياسة «فرق تسد» ثم في سياسات الدمار الشامل التي قد تنتهي بتناقص أعداد الجبابرة وشعوبها بحيث تبدأ وتختزن سياسة الإبادة والدمج: يقتلون أبناء وذكور أعدائهم للقضاء عليهم ويستحيون نساء أعدائهم إما لغنائهم أو لاستحصالهن لأنفسهم!! وفي كلا الحالين فإن شهادة التاريخ وحجة القرآن قائمة لمن لم تزغ قلوبهم.

العراق وفلسطين

كل هذا يقودنا إلى التأزم والافتراق والمفارقة الحاصلة في

حيثيات كل من العراق وفلسطين. كل منا يعرف بداهة أن العراق وفلسطين تتعرضان لغزو احتلال يختلفان في التكتيك ويتفقان في الاستراتيجية . إسرائيل وأمريكا كلاهما مجرمتان فيما يقومان به ضد الشعبين المظلومين في الأرض المقدسة وبلاد مابين النهرين. والتخلص من إسرائيل وأمريكا واجب شرعي عدا عن كونه مطلبًا قانونيًا . ولكن ما تحت سطح الاحتلال الغاشم هو بيت القصيد. ولا يسعنا هنا في هذه العجالة أن نفتح الملف الفلسطيني والملف العراقي بكل مافيها من تفاصيل وتفاصيل التفاصيل في تشعباتها السياسية والتاريخية والعسكرية والعقدية وغير ذلك.

فيكفي أن نشير هنا إلى أن فلسطين تم احتلالها وسرقتها بعد أن طويت صفحة الحكم الإسلامي، ودخل الاستعمار بجيوشه وطابوره إلى البلاد الاسلامية كلها من مشارق آسية إلى مغارب إفريقية. وبانحسار موجة الحكم الإسلامي بدأت كيانات علمانية وقومية واشتراكية ورأسمالية وقبلية وإقطاعية وغيرها تغيّب الإرادة الشعبية الإسلامية عن حيز التنفيذ ، وبذلك تمّ للشراكة السياسية الغربية المجتمعة حول (أولوية الصهيونية) توطين مئات الآلاف من اليهود الصهاينة في الأرض المقدسة. وبدأ هؤلاء الوافدون الناهبون يعملون ليل نهار على تفريخ الكيان والنظام الصهيوني العنصري وبغياب الإرادة السياسية الإسلامية الشعبية وبتغييب ديناميكية البيعة والشورى من حياة المسلمين الاجتماعية والسياسية تم في ليل مظلم سلخ الشعوب المسلمة عن حكوماتها غير المسلمة.

فأصبح الآن أكثر من مليار ونصف مليار مسلم في واد ، وحفنة من الحكام ومرافقيهم في واد آخر. وبسبب هذه المسافة الشاسعة بين شعوب تريد إسلامًا وحكومات تريد كل شيء وأي شيء خلا إسلامًا سبّب ذلك أن دخلت (إسرائيل) بعيوبها الخلقية كلها إلى فلسطين والأبواب كلها مشرّعة أمامها من ماليزية إلى مالي! إرساء دولة خبيثة كهذه بعنجهيتها وعنصريتها لم يكن ليحدث لو تمتعت الشعوب المسلمة باجتهاداتها ومارست توجهاتها وتلاقحت اختياراتها ضمن نفسية التآخي برغم افتراق الاجتهاد ، والتفاهم برغم اختلاف الرأي، والتناصر برغم تفاوت الشورى.

أما العراق وما يحدث في العراق فيجب أن يطفو على سطح الوعي الإسلامي العام.

العراق يمثل المرة الأولى بعد إنشاء الشبكة العلمانية القومية من قبل الغرب في العالم الإسلامي، الذي يتخلص فيه من أحد عملائه ليس لأن هذا العميل لم يعمل على خدمة المصلحة الغربية ولكن لأنه لم يستطع أن يهزم الإسلام السياسي إلى جواره الشرقي (إيران) وداخل كيانه (العراق) . وهذه إن دلّت على شيء فإنها تدلّ على أن السدّ القومي والعلماني الذي وقف بحكوماته وأنظمته أمام إرادة الشعوب الإسلامية بدأ يتآكل ويتفتت ويتشرذم . ولم تعد الصهيونية والإمبريالية قادرتين على ممارسة دورهما الهدام من وراء جدار. فالآن وبفضل مئات الآلاف إن لم يكن الملايين من الشهداء الذين قضوا نحبهم ومضوا إلى ربهم

انكشفت أو تنكشف الأقنعة عن العملاء والدخلاء والتبعاء. إن المسؤولية العامة على المسلمين اليوم هي أكبر مما كانت عليه من قبل .

إن الانهيار العصبي السياسي في الغرب واضح في المحاولات الحثيثة من قبله «لجزأرة» العالم الإسلامي. وهذا يعني أن الاستخبارات الصهيونية والأمريكية والغربية وغيرها من مؤسسات عسكرية وسياسية قد دخلت على «خط العمل الإسلامي» وتحاول جهدها الأخير في اقتراف أعمال إرهابية ثم تلصق هذه الأعمال الإرهابية بالمسلمين، تمامًا كما فعلت في الجزائر تفعل الآن في كل مكان لتثير النقمة الشعبية والسخط العالمي على المسلمين المجاهدين في الدرجة الأولى وعلى باقي المسلمين بالدرجة الثانية!

إن اختزان الوعي السياسي التاريخي هو القيمة الفريدة والمنقذ من ضلال هذا العصر الصهيو – أمريكي . والذين يركنون إلى الذين ظلموا في هذه الحالة يغازلون كفرًا. إن الإيمان في مثل هذه الأوضاع وضمن هذه التحديات وداخل هذه التطورات معناه البراءة من أمريكا وإسرائيل بكل عصيهم وجزراتهم. أمريكا في العراق وإسرائيل في فلسطين تقدمان لنا أجلى تفسير للكفر والشرك والظلم. فبأي مفهوم وبأي انتساب لله ولرسوله وللمؤمنين يقوم بعض أبناء جلدتنا والمتمظهرين بالإسلام بركوب الدبابات الأمريكية أو التشاور مع «الخبراء» الصهاينة في المنطقة كلها

الآن؟! هذا هو المنكر عينه العداوة نفسها والكيد الذي لاريب فيه:

﴿وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ (آل عمران/ ١٠١).

نعلم أن كثيرًا من المسلمين يعيشون حالة «قبلية» ومن أشد هذه الحالات هي «المذهبية القبلية» فالسني والشيعي في بعض الأحيان المتكررة يعبرون عن «سنيتهم» أو عن «شيعيتهم» وكأنهم أعضاء في قبيلة: إحداها قبيلة السنة والأخرى قبيلة الشيعة. ولعمري إن هذا من أفتك ما ابتلي به المسلمون. والتقوقع الفكري (إذا صح التعبير) هو الذي يجعل كثيرًا منا نعيش هذه الحالة «العصبية».

أملنا ورجاؤنا أن يبادر المسلمون إلى أخذ الكتاب بقوة.

دعاؤنا وتوسلنا أن يغفر لنا الله تقصيرنا ومالا طاقة لنا به..

وثقتنا ويقيننا أن الله ناصر من ينصره.

الصحوة الإسلامية في مطلع القرن العشرين

وأثرها في التصدي للاستعمار

حسن الهاشمي*

إن للفكر والثقافة الإسلامية أثرًا فاعلا في تحريك الجماهير، وتأجيج النفوس للثورة ضد الظلم والاستبداد والاعتساف، أيًا كان مصدره، سواء أكان استعمارًا أجنبيًا كافرًا، أو حكمًا مستبدًا ظالمًا، أو ملكًا فاسدًا، لا فرق في ذلك فإن كل من ينزُّ للسيطرة والإخضاع والافساد، لمصالح شخصية أو لأهواء ذاتية أو لدوافع شيطانية، فإن الفكر الإسلامي له بالمرصاد، يكشف عوراته ويدحض أباطيله، ويرأب الصدع الذي قد يحدثه في أوساط المجتمع الإسلامي.

الإسلام وبما يحمل من أفكار متعالية وقيم سامية، كالتنظيم الدقيق للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين الأفراد، وإطلاق الحريات التي تضمن سعادة البشر في الدارين، ونبذ العنصرية بشتى أشكالها، والمساواة والعدالة وتهذيب النفس

---

*- باحث إسلامي عراقي.

والمروءة والإحسان والرأفة والإخاء والتعاون وغيرها الكثير من الأحكام التي لها بالغ الأثر في صيأنة الأمة من الانحراف والتيه والضياع، فإنه قادر على تلبية مطالب الأمة في الحرية والانعتاق والرفعة والكرامة والسيادة.

وطالما أن الأمة الإسلامية تحمل بين جنباتها تراثًا عظيمًا ومتكاملاً، فإنها قادرة على التصدي للأزمات الداخلية والخارجية التي تعصف بها، وهي قادرة أيضًا على التفاعل وبشكل مستمر مع القيادة العلمائية المخلصة التي تمثل السماء وأخلاق الأنبياء وصفح النبلاء.

إن التفاعل الحيوي والمثمر بين العلماء والأمة لة أبعاد حقيقية لا تقتصر على حياة الإنسان الدنيوية فحسب، بل تتعداها إلى الحياة الأبدية في الآخرة، وإن هذا التفاعل تربطه أواصر أوثق من الصلات التي تربط بين القيادة والأمة في المجتمع المادي، البعيد عن قداسة الوجود وكمالات النفس ومراتب الأخلاق والمناقب الإنسانية.

فيمكن أن تكون الأواصر المادية مقتصرة على المنافع الشخصية الآنية دونما ملاحظة قيم وأخلاق وتعهدات، بيد أن هذه المعاني يمكن مشاهدتها بوضوح في العلاقة التي تربط بين الأمة الإسلامية وعلمائها الأبرار من جهة، وبين المسلمين في تعاملهم مع بعضهم البعض، وفي تعاملهم مع الشعوب وبقية الأطر الفكرية والثقافية السائدة في العالم من جهة ثانية، وكيفية التعاطي مع

الأحداث والأزمات والوقائع حسبما تتطلبة الظروف القاهرة، وحسبما تقتضيه الإمكانات المتاحة من جهة ثالثة.

فلو أخذنا شعب العراق أبان ثورة العشرين بنظر الاعتبار فإنه قد عاش في كنف قائد قادر على أن يحقق له آمالة ويخفف عنه آلامه، إنه التف حول قيادة الإمام الشيخ محمد تقي الشيرازي، الذي جمع بين ذرابة السيف وذلاقة القلم، ذلك القائد الذكي والسياسي الشريف، الذي انتهل من ينبوع الإسلام الخالد، استطاع أن يجنّد كل الطاقات ويشحذ كل الهمم في مدة قصيرة، ويخلّص العراق وشعبه من سيطرة الاستعمار المباشرة بعد سنتين من تولّيه الزعامة الدينية والسياسية في المجتمع الإسلامي العراقي. في حين أن دولاً أخرى أبان حملة الاستعمار قد استسلمت لرقاد طويل، دام في بعضها زهاء قرن كامل من الزمن.

الجهود كلها تظافرت آنذاك للقيام بالثورة العتيدة، شعب ساخط، قائد ملهم، طبقة قيادية ميدانية من علماء الدين وبعض الوطنيين الأحرار، طلائع الأمة المضحية، جماهير مؤمنة بالقيادة الرشيدة، قرارات حكيمة صادرة عن تلك القيادة، منهج عمل واضح، كل هذه المقومات تظافرت وتوالدت على ضفافها قناديل الأمل نحو الإصلاح والتغيير والانعتاق من كل ظلم وتعسف وعلى مر العصور.

ولكي لا نطيل في قراءة صفحات المجد الغابر والتباكي على الأيام الخوالي، ولكي نستلهم من الصحوة الإسلامية دروس

البطولة والفداء والتضحية، ولكي نقف على أهم الروافد الفكرية والثقافية التي كانت تقف وراء تلك الصحوة، نقدّم هذه الدراسة التحليلية عن الظروف التي كانت تكتنف المجتمع الإسلامي آنذاك وأهم المرتكزات الفكرية التي انطلق ذلك المجتمع وقادته من خلالها، لمكافحة ظاهرة الاستعمار السياسي والعسكري والثقافي.

الهجوم الغاشم

يمكن اعتبار الفترة الممتدة بين النصف الأول من القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين هي بداية الغزو العسكري الغربي لبلاد الشرق الإسلامي، العربي.

ولم يأت هذا الغزو اعتباطًا، وإنما كانت ثمة مؤهلات تحضيرية قد مهدت الطريق أمام جحافل الغزو الأوروبي للبلاد الإسلامية، ومن أبرز تلك المؤهلات الضعف والخور الذي انتاب الامبراطوريتين العثمانية والإيرانية اللتين كانتا تمثلان قطب الرحى التي تدور حولهما دول العالم الإسلامي آنذاك

ففي أواخر عهدها أصبحت الدولة العثمانية جسدًا ينخر فية السوس، نتيجة لضعف الحكام فيها وعجزهم عن إصلاح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في الولايات الممتدة تحت ظل الإمبراطورية هذه.

وهذا أدى بدوره إلى تدهور حاد في الوضع الاقتصادي

والعمراني بشكل خاص، حيث كانت المجاعات تدور في أطراف البلاد، والجفاف يضرب الأراضي المزروعة، فيدعها قاعًا؛ وجيش الفقراء يزداد كل يوم، والبحث عن الخبز لا يواجه إلا بمزيد من المطالبة بالضرائب من أجل تموين الجيش التركي[1].

ليت الأمر يقف عند هذا الحد، فالاستبداد بلغ ذروته في عهد السلطان عبد الحميد الثاني، أما الإرهاب والظلم الذي مارسته جمعية «الاتحاد» التركية بحق الشعوب الإسلامية، فحدِّث ولا حرج.

فالحكومة التركية أرادت من خلال هذه الجمعية تتريك الولايات الخاضعة تحت النفوذ العثماني، لذلك كانت العنصرية والدعوة إلى القومية التركية أحد أهم سمات تلك الجمعية التي ومنذ تأسيسها ما فتأت تعزف على هذا الوتر الحساس والخطير في نفس الوقت، مما أدّى إلى ظهور تيار مضاد في الدول الخاضعة تحت النفوذ العثماني، يدعو إلى القومية العربية، كما سيأتي تفصيله لاحقًا.

بالإضافة إلى ماذكر فإنَّ الدولة العثمانية، ومنذ أن سيطرت على العراق في مطلع القرن السادس عشر الميلادي، منحت الشركات الاوروبية «امتيازات»[2] سخية.

---

١ - عباس محمد كاظم - ثورة الخامس عشر من شعبان - ص ١٧ .

٢ - منحت الدولة العثمانية الامتيازات للانجليز للمرة الأولى عام ١٥٨٠م، إلا أن المصنع الذي أنشأه الانجليز في البصرة عام ١٦٤٣م كان يعتبر بداية لتاريخ النفوذ الانجليزي في العراق.

وهذه الامتيازات «شكلت بدورها مدخلاً مهمًا لتغلغل النفوذ والمصالح الأوروبية في الدولة العثمانية وولاياتها ومنها العراق»[1].

ولم يقف التغلغل الأوربي إلى هذا الحد بل تعداه إلى محاولة مسخ هوية الشعوب الإسلامية العربية، فقد اتخذ هذا التغلغل في «الولايات العراقية العثمانية مظاهر عدة؛ كان أبرزها التثبيت للنفوذ الاقتصادي والسياسي، الذي ترافق معه نشاط تبشيري وثقافي بارز»[2].

بيد أن هذا النشاط، وعلى الرغم من إمكانياته الضخمة، واستعداداته الهائلة «بقي محصورًا بين جدران الكنائس وأروقة المعابد اليهودية، بالإضافة إلى التأثير المحدود الذي خلَّفة على بعض أصحاب النفوس الهزيلة من جيل الشباب، الذي انبهر بالتقدم الصناعي والعسكري للغرب، دونما يحدث شرخًا عميقًا في عقيدة الشعب العراقي ككل، وبالعكس من ذلك فقد التفَّ الشعب بأسره حول قيادة علماء الدين، واستوحى منهم دروس العقيدة والجهاد في مقارعة الغزاة الطامعين، وأبلى في مواجهة العدو الغازي بلاء حسنًا في كثير من المواقع»[3]. بالرغم من إمكاناته المحدودة إذا ماقورنت بإمكانات العدو الهائلة عددًا وعدة وتنظيمًا.

---

١ - عبد الحليم الرهيمي - تاريخ الحركة الإسلامية في العراق ص ٤٥.

٢ - نفس المصدر السابق ص ٤٥ .

٣ - السيد عبد الشهيد الياسري - البطولة في ثورة العشرين - راجع ثورة الرميثة ص ١٩١، حصار الثوار لحامية ابي صخير ص ١٩٩، معركة الرارنجية ص٢٠٥ .

«ولم تكن حال الإمبراطورية الإيرانية بأفضل من العثمانيين، بل في بعض الأحيان كانت إيران تتبع سياسة أكثر ضعفاً واستسلامًا للغرب، كما كان الأمر في العهد القاجاري، ففي أواخر هذا العهد وبعد أن اعتلى الحكم «فتح علي شاه» أصبحت إيران ككرة القدم في ملعب السياسة الدولية بين روسيا وبريطانيا، فمرة تسقط في أحضان النفوذ الروسي، وأخرى في أحضان النفوذ البريطاني» [1].

ففي ظل حكم الدولتين العثمانية والإيرانية، كانت الشعوب الإسلامية تعاني الفقر والفاقة والاستبداد والظلم، بينما كان الحكام، لاسيما في أواخر عهدي تلكما الدولتين منغمسين في اللهو واللعب، بعيدين كل البعد عن مشاعر الشعب واحتياجاته الأساسية في الحياة.

وعندما شعر الاستعمار بقوته وسطوته، وبضعف وخور حكام الدول الإسلامية، انطلقت جحافله في مطلع القرن التاسع عشر تجوب البلاد الإسلامية طولاً وعرضًا، متخذة إياها دولاً وشعوبها خَوَلاً.

بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا النازية، وإسبانيا، أسماء الدول الأوروبية الأكثر تألقًا في سماء النفوذ الدولي آنذاك، تلك الدول وغيرها كانت تتبارى في حلبة الدول الضعيفة لاقتسام الغنيمة.

---

١ - عباس محمد كاظم - ثورة الخامس عشر من شعبان ص ١٤ .

وبطبيعة الحال، فإن الأقوى تكون له حصة الأسد من الغنائم، وهكذا كانت بريطانيا العظمى هي السبَّاقة في بسط نفوذها على أكبر قدر ممكن من الدول والممالك الإسلامية.

فبدأت في السادس من تشرين الثاني عام ١٩١٤م باحتلال العراق ومن قبل «احتلت الهند عام ١٨١٨م، وهو العمق الاستراتيجي لإيران، وحكمتها حكمًا مباشرًا بعد أن كانت قد بسطت نفوذها عليها فترة غير قصيرة»[١].

وانطلقت بعد ذلك لاحتلال جميع الطرق الإستراتيجية التي تؤدي إلى الهند والشرق الأقصى، فقامت باحتلال الدول المطلة على البحر الأحمر ليتسنّى لها احتلال مصر، وبعد أن حققت مآربها من ذلك اتجهت صوب البحر الأحمر، فاستولت على معظم دول الخليج وجزرها ذات الموقع الاستراتيجي من الناحيتين الاقتصادية والعسكرية، تمهيدًا لاحتلال إيران من الجنوب، حيث كان الشمال مسيلاً للعاب روسيا، والتي بالفعل تقدمت واحتلت أجزاء واسعة منه، وهي بلاد القفقاز وبادكوبة وبخارى وسمرقند في عهد «فتح علي شاه» ومازالت تلك المدن واقعة تحت سيطرة دول آسيا الوسطى في وقتنا الحاضر.

وفي عام ١٨٨١م احتلت بريطانيا مصر، وأعقبها احتلال السودان في عام ١٨٨٤م، وبذلك تسدّت القوات البريطانية جميع

---

١ - نفس المصدر السابق / ص ١٣ .

الطرق المؤدية إلى الهند بوجه المستعمرين الآخرين.

أما فرنسا فإنها احتلت الجزائر في العشرينات من القرن التاسع عشر ثم قامت باحتلال تونس عام ١٨٨١م، وفي عام ١٩١١م احتلت مراكش.

كما أن ليبيا وبعض اجزاء المغرب كانتا من نصيب القوات الايطالية والاسبانية على التوالي.

المقاومة العنيدة

وفي ظل هذه الظروف العصيبة التي مرت بها الدول الإسلامية وغيرها من الدول التي وقعت فريسة الاحتلال الغربي، انطلقت طلائع المقاومة من رحم الشعوب المضطهدة، لطرد العدو الغازي من التراب الوطني الإسلامي.

ففي العراق، انطلقت حركة الجهاد في التاسع من تشرين الثاني أي بعد ثلاثة أيام من احتلال الفاو من قبل القوات البريطانية وشارك في هذه الحركة علماء الدين المخلصون، ورؤساء العشائر الغياري، وبعض الوطنيين الأحرار.

أمّا الهند فقد استطاع الزعيم الوطني غاندي بمؤازرة شعبة طرد الاستعمار البريطاني بعد أن بقى جاثمًا على صدرها عقودًا طويلة من الزمن.

وهكذا توالت الثورات والانتفاضات الشعبية ضد الغزاة الطامعين، فقد شهدت مصر انتفاضة عارمة قادها علماء الأزهر

في وجه غزوة نابليون ثم في وجه الاستعمار البريطاني، وتكللت في ثورة عُرابي الكبرى بعد عام واحد من الاجتياح البريطانى لمصر.

اما السودان فإنه شهد بشكل خاص «الدعوة المهدية التي أعلنت الجهاد ضد النفوذ الأجنبي، وحققت انتصارات ساحقة ضد القوات البريطانية، وطبّقت الشريعة في عهد محمد أحمد المهدي عام ١٨٨٥م، ولم تهزم الثورة في السودان إلا في عام ١٨٩٨م من خلال القوات البريطانية التي تمكنت بعد محاولات كثيرة من السيطرة عليها».[١]

وكذلك واجهت فرنسا وإيطاليا وإسبانيا حركات تحررية عنيفة قادها الأمير عبد القادر الجزائري عام ١٨٣٠م، وفي الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي، ومحمد بن علي السنوسي عام ١٨٤٢م، وعمر المختار عام ١٩١١م، في ليبيا ضد الاستعمار الايطالي، وعبد الكريم الخطابي عام ١٩١٤م في المغرب ضد الاستعمار الإسباني والفرنسي.

واستطاعت هذه الثورات «أن تحرر مناطق واسعة، وتقيم فيها حكمًا إسلاميًا لفترات متفاوتة، ولم يُصفّ أمرها إلا بالقوة المسلحة الخارجية»[٢].

المهم أن الثورات الموضعية بقيادة علماء الدين المجاهدين قد قاومت الاحتلال الأجنبي مقاومة شديدة، ولم تفترش الأرض

---

١ - منير شفيق - الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات ص ١٠ .

٢ - نفس المصدر السابق / ص ١١ .

رياحينًا للعدو أيًا كانت الأسباب.

إن الذين دافعوا عن الدولتين العثمانية والإيرانية في مواجهة الغزو الغربي، ماكانوا يؤيدون الحكم الفردي المتمثل بالدولة الإيرانية، ولا حتى نظرية الخلافة العثمانية.

فعلماء الدين الذين قاوموا الاستبداد العثماني والقاجاري، دافعوا عن هذين النظامين يوم أن داهم الخطر الأكبر مرابض الأمة الإسلامية.

دافعوا عن القاجاريين يوم أن حاولت بريطانيا أن تزيل نظام حكمهم وتنصّب مكانهم العميل «بهلوي»، لتفتح إيران أمام النفوذ الغربي.

دافعوا عن العثمانيين عندما اجتاحت القوات البريطانية الولايات الخاضعة لها، بزعم أنهم محررون لا فاتحون...

والسؤال المطروح هنا كيف دافع علماء الشيعة بالخصوص عن نظام الخلافة العثمانية، والحال أن هذا النظام أنزل ألوان الظلم بالأحرار؟

«ليس غريبًا أن يكون علماء الشيعة في مقدمة الذين أفتوا بضرورة محاربة الغزاة البريطانيين تحت لواء الخلافة العثمانية؟ ذلك أنهم كانوا يواجهون شرّين أحدهما أكبر من الآخر، الشر المطلق الذي هو سيطرة الغرب الكافر على المسلمين، والشر النسبي الذي هو الحكم التركي المستبد الظالم، وعندما يخير

المرء بين شرّين، فعليه أن يختار أهونهما دفعًا للخطر الأعظم»[1].

كما هو معروف أن القوات الأجنبية الغازية قد واجهت في مناطق نفوذها ثورات متعددة المشارب والأفكار، وأنها وفي نهاية المطاف تجرعت كأس الهزيمة في معظم تلك المناطق في العالم، وإن طال البقاء في بعضها.

وكلما كانت المقاومة أشد وأقسى، كان بقاء الاستعمار أقلّ وخسارتة أكثر.

وبطبيعة الحال أن الثورات هي تعبير صادق عن إرادة الجماهير في الحرية والانعتاق، وأن لكل ثورة روافد فكرية ترتضع منها، ليقوى بها عودها، وتتصلب بها إرادتها ومقاومتها.

والذي يقلّب صفحات التاريخ، يجدها مشرقة، وكلمات من نور تتوهج منها آيات الكفاح المسلح، والانتفاضة الرافضة لكل ألوان الظلم والقهر والاستبداد، أيًا كان مصدره، ومهما كانت قوته.

التيارات الفكرية للثورة

إن أهم الروافد الفكرية التي غذّت الثورة التحررية للشعوب الإسلامية آنذاك أربعة:

١ - التيار الإسلامي الثوري.

---

١ -عباس محمد كاظم - ثورة الخامس عشر من شعبان ص ٧٩ .

٢ - التيار الإسلامي المهادن.

٣ - التيار الوطني القومي.

٤ - التيار العثماني المتخلف.

إن هذه التيارات، المتباينة في أفكارها ومناهجها ومشاربها، قد شاركت بشكل أو بآخر في تعبئة الجماهير ضد الهجمة الاستعمارية الشرسة على البلاد الإسلامية، العربية.

وكل واحد من هذه التيارات كان يستقطب فئة اجتماعية معينة، وتقف وراءه قوى سياسية معينة. وكل واحد منها كان يتحرك في إطار الدائرة الشعبية الخاضعة له.

وأن الفكر الإسلامي لما يحمله من نتاج فكري غزير وخصب، كان رواجه الشعبي أوسع من غيره من الأفكار الوضعية، ولهذا فإن روافد الفكر والثقافة الإسلامية هي التي أججت روح الثورة والمقاومة لدى كثير من الدول العربية ـ الإسلامية، بالإضافة إلى التأثير الملحوظ الذي خلفه الفكر القومي في هذا المجال.

فلو أخذنا تجربة الثورة الشعبية في العراق ضد الاستعمار البريطاني عام ١٩٢٠م نلاحظ وجود فرق شاسع بين التأثير الإسلامي الثوري والتأثير القومي في أوساط الجماهير العراقية.

فبينما كانت النوادي والمقاهي منتجع رواد الفكر القومي، كان المسجد والحسينية مراكز مهمة لبث الفكر الإسلامي الثوري.

كان الفكر القومي متأثرًا فعلاً بالأفكار الأوروبية التي طُرحت بعد الثورة الصناعية الفرنسية، كالعلمنة والتفسير المادي للحياة، في حين أن الفكر الإسلامي كان منشغلاً في نقد الحضارة المادية الأوروبية من جهة، ومقارعة الغزاة الطامعين بالبلاد الإسلامية من جهة أخرى.

رواد الفكر القومي كانوا يتلقون مساعداتهم المادية والمعنوية من الخارج غالبًا، بينما كانت الحقوق الشرعية من الخمس والزكاة هي المعين الذي لا ينضب لرفد الحركة الإسلامية في العراق.

العلاقة التي تربط بين قادة الفكر القومي وقاعدته الشعبية قائمة أصلاً على المادة والمصالح المشتركة، بينما العلاقة القائمة بين الجماهير المسلمة والقيادة الإسلامية كانت ولاتزال مبنية على أساس التقوى والإيمان والعمل الصالح.

وما الاستجابة الواسعة التي أبدتها العشائر لدعوات الجهاد التي انطلقت من حناجر علماء الدين الشيعة من على منبر المساجد والحسينيات إلا دليل صارخ على الدور الفعال للعامل الديني في مواجهة المحتل من جهة، ودور العلماء وقدرتهم في استنهاض الهمم لمقاومة الاحتلال البريطاني ومن ثم الانتداب، من أجل المطالبة بالاستقلال التام من جهة ثانية.

الأدب الهادف

وغير ماذكر، فإن ثمة روافد فكرية أخرى ساعدت على خلق

جو ثوري ضد الاحتلال البريطاني للعراق، منها: الشعر بشقيه القريض والعامي، ولكن الشعر العامي و«الهوسات» كان أثرها أعظم في النفوس لاسيما في أوساط العشائر في الفرات الأوسط والجنوبي، وكذلك كان للأدب والنثر، الذي كان يُلقى في المهرجانات والاحتفالات، أو ينشر في المجلات والجرائد أثره الفعال في تجنيد الطاقات وشحذ الهمم لمواجهة الغزو العسكري والثقافي القادم من الغرب الكافر.

هذه المواجهة التي أطلق شرارتها الأولى علماء الدين الشيعة من خلال قيادتهم لطلائع المجاهدين، وكذلك قصائدهم ومواعظهم التي ألهبت النفوس حقدًا وغيظًا على الغزاة الطامعين.

ولا يخفى «أن المضمون الإسلامي الذي حملته الثورة لم يتمثل فقط في الدور القيادي البارز للعلماء فحسب، وإنما في الأهداف والأفكار السياسية التي انطلقت على أساسها مقاومة الانجليز، حيث ارتبطت المقاومة من أجل التحرر والاستقلال، بالدفاع عن الإسلام والمسلمين ضد إحدى الدول الأوروبية المعادية، ولعل مضمون القصيدة التي نضمها الشيخ جواد الجواهري في سجن بغداد، بعد ان حكم عليه بالاعدام، هي احدى التعبيرات عن ذلك»[1]. والذي يقول في بعض أبياتها:

---

١ -مجلة العرفان - العدد السابع - دور الحركة الإسلامية في مقاومة الاحتلال والمشاريع الانجليزية للسيطرة على العراق (١٩١٨ - ١٩٢٠) ص ٦٢ .

مددنا بصائـــــرنا لا العيونا وفزنـــا غـداة عشقنا المنونا
رعيـــــنا بها سنة الهاشمـي نبي الهدى والكتاب المبيـنا
وصنّا كرامة شعب العـراق وكنا لعلياه حصنا مصونـــا
وخضنا المعامع وهي الحمام نـــدافع عن حوزة المسلمينا
وجحفـــل أعـــدائنا الانجليز يملأ سهل الفـــــلا والحزونا
وما ضامنا الأســـر في موقف أطعنا عليه الرســـول الأمينا

وهكذا نجد نفس المفاهيم التي جسدها الأدباء والعلماء في الشعر القريض، هي ذاتها موجودة في الأهازيج التي كانت تتفجر من حناجر عشائر الفرات الأوسط والجنوبي، تلك المفاهيم الدينية التي رسمت الخطوط العامة للثورة، وألهبت النفوس وأججتها في المطالبة بالحق المغصوب، والتراب المضيّع، والقيم المهددة.

فكان للشعر الشعبي الهادف، أثره الفعّال في محاربة الغزاة، وتعكير صفو أحلامهم الوهمية في السيطرة والاحتلال.

فقد عكس هذا الشعر «ولاسيما الأهازيج والهوسات المفهوم الشعبي والإسلامي للثورة، الذي شكل الدافع الأساسي لانخراط العشائر فيها، واستجابتهم لفتاوى العلماء وأوامرهم، فالقصائد والهوسات التي نظّمت أبان الثورة وبعدها كانت تعبر عن مدى التأثير القوي لهذا العامل ودوره في الثورة»[1]. فعلى سبيل المثال تعكس الأهزوجة التي رددتها إحدى النساء أمام افراد عشيرتها

١ - عبد الحليم الرهيمي - مرجع سابق ص ٢٣٢.

الظوالم مع بدء معركة الرميثة، عن مدى التزام عشائر العراق بالواجبات الدينية في محاربة الكافرين، فقالت: وهي تستحثهم على القتال: «ها..ها.. حل فرض الخامس **گومولە**»، أي إن الجهاد وهو الفرض الخامس من فروع الدين يستصرخكم، فلبُّوا نداءه وجاهدوا الغزاة الكافرين الطامعين بأرض المقدسات في العراق.

ولم يكن الشعر الشعبي والقريض وحده في ميدان المواجهة للتحريض والتأليب ضد الواقع الفاسد، الذي كان يكتنف العراق في ظل الاحتلال، بل كانت الجمعيات والأحزاب والتنظيمات الشعبية بقيادة علماء الدين المجاهدين تلعب دورًا بارزًا في هذا الميدان.

الجمعيات الإسلامية.. تأثير فاعل

«لقد شهدت حركة المعارضة الإسلامية، إرهاصاتها الأولى مع بداية انحسار حركة الجهاد، في اعقاب معركة الشعيبة، حيث عقدت لقاءات ومؤتمرات متتالية بين عدد من العلماء في النجف وكربلاء، وزعماء العشائر في الشامية والناصرية والشطرة، وغيرها من مناطق الفرات الأوسط، كان الرأي السائد فيها هو الإعداد للثورة على الانجليز ومحاربتهم»[1].

---

١ - مجلة العرفان - مرجع سابق ص ٥٨ .

الصحوة الإسلامية واليقظة

حسن حنفي*

تمثل حوادث ١١ سبتمبر تحديًا للمسلمين في وحدتهم، وحدة الأمة التي هي تعبير عن وحدة الله ﴿وإلهكم إله واحد، وأنا ربكم فاعبدون﴾ إذ يخطط لآسيا، والمسلمون أكبر تجمع سكاني فيه مثل الصين والهند، ضرب الإسلام الآسيوي بالإسلام الآسيوي، ضرب أفغانستان بباكستان بدخول باكستان كعضو في التحالف الأمريكي البريطاني، وضرب إيران بأفغانستان وأفغانستان بإيران، الشيعة بالسنة والسنة بالشيعة دفاعًا عن الهزارة الشيعة في أفغانستان.

كما حدث بالفعل بعد حادث مقتل الصحفيين الإيرانيين الستة في أفغانستان لجر إيران للحرب، وإشعال وقود الحرب الأهلية الأفغانية، وتحويلها إلى حرب بين الدول الإسلامية المتجاورة. وتتطور الحرب بين الفصائل داخل الدولة إلى الجيوش النظامية بين الدول باسم الطائفية، سنة أفغانستان مع شيعة إيران.

---

*- كاتب ومفكر من مصر.

ويتحول الفتيل الأفغاني إلى نار كبرى تعم آسيا الوسطى كلها. ويكبر الصراع بين التحالف الشمالى والطالبان على أنه صراع عرقي بين الطاجيك والأوزبك وبعض الأعراق الصغرى ضد الباشتون، الأغلبية العرقية، والتي خرج منها الطالبان. ولما كان الفريق الأول أكثر حداثة من الثاني وأكثر انفتاحًا، وكان الفريق الثاني أشد محافظة وأكثر انغلاقًا، وقعت الحرب في كل عموم آسيا بين المحافظين والإصلاحيين في إيران، والإسلاميين والعلمانيين في تركيا، ويقتتل جناحا الأمة واحدًا ضد الآخر، بدلاً من أن ينهض قلب الأمة بمساعدة الجناحين.

ثم يتم تفتيت كل بلد إسلامي إلى قبائل وأعراق، تفتيت أفغانستان إلى باشتون وطاجيك وأوزبك، فتثور الأقليات غير الممثلة ضد الأغلبية الحاكمة، وتفتيت باكستان إلى باشتون وبيتان وغيرها من الأقليات، وتفتيت العراق وسوريا إلى عرب وأكراد، وتركيا إلى تركمان وأكراد، وتفتيت أندونيسيا إلى قبائل ولغات في جاوة وسومطرة. وكما انفصلت تيمور الشرقية تنفصل أتشيه ثم ايريان الغربية. وتعظم المذابح بين المسلمين والنصارى والهندوس حتى تتدخل الأمم المتحدة تحت سيطرة الولايات المتحدة لتفرض الأمن والنظام واحترام حقوق الإنسان. ويتم تفتيت ماليزيا بين صينيين وملاويين، كما تم فصل سنغافورة عنها من قبل باسم الأغلبية الصينية، وبين نجد والحجاز في السعودية، وبين أهل البدو والحضر في الأردن. ونظرًا لتمسك المسلمين في آسيا

بالمذاهب الفقهية يتم ايقاع النزاع بين الشافعية والأحناف في أواسط آسيا، والسنة والشيعة في العراق وفي المنطقة الخليجية، وبين السنة والعلويين في سوريا، وبين السنة والموارنة في لبنان، وبين المسلمين والأقباط في مصر. وإن استحال ذلك في ماليزيا، يمكن ضرب عملتها والمضاربة عليها في أسواق المال العالمية، تحت سيطرة القوى الكبرى فتنخفض العملة، ويُقضى على عائدها الاقتصادي ورأسمالها الوطني. ويمكن ضرب الإسلام الآسيوي بالإسلام العربي في المنطقة الخليجية دفاعًا عن الأرزاق، وفي الأوطان رزق للجميع.

ويمكن تفتيت الشعوب إذا ما انقسمت حول سياسات نظمها الحاكمة، كما حدث في باكستان عضوًا في التحالف الأمريكي البريطاني على أفغانستان، ودخول باكستان في التحالف الأمريكي البريطاني، وتقديم تسهيلات وقواعد وأجواء مما يهدد بحرب أهلية بين الحكومة وغالبية الشعب، وقد حدث الشيء نفسه في الحرب العراقية ـ الإيرانية. فقد انقسم العرب بين مناصر لإيران ومناصر للعراق ومناصر لكليهما. وتكرر الشيء نفسه في حرب الكويت فانقسم العرب بين مؤيدي التدخل الأمريكي البريطاني ضد العراق وبين معارضيه. فعبقرية التفتيت في وضع قضايا تقسيم العرب والمسلمين، كما فعل عمرو بن العاص، برفع المصاحف على الرماح فانقسم فريق علي إلى خوارج وشيعة، إلى رافض للتحكيم وإلى قابل له، وكذلك مثلت كامب

ديفيد التي قسمت العرب إلى فريقين، قابل ومعارض.

ويمكن اتخاذ كشمير ذريعة لإشعال الحرب بين الهند وباكستان، وتدمير باكستان والهند معًا، فكلاهما بركان للسلاح النووي، وبالتالي تكون الولايات المتحدة قد قضت على باكستان التي تزدهر فيها الحركة الإسلامية التقليدية المناهضة لها والمؤيدة للطالبان، وتنظيم القاعدة، وتخلصت من الهند التي طالما أزعجت الغرب منذ مؤتمر باندونج حتى بلغراد، داعية للحياد الإيجابي أثناء الحرب الباردة بعد أن تم تفتيت يوغسلافيا وتهميش مصر. يمكن استعمال الهند تهديدًا مستمرًا لباكستان من الشرق وإسرائيل من الغرب، لتدمير قوتها النووية لإجبارها على دخول بيت الطاعة، وقهر الحركات الإسلامية فيها المعادية لأمريكا والمتحدية لإرادتها. ومع أن باكستان قد قامت كدولة إسلامية حلاً لمشكلة الصراع بين الهندوس والمسلمين، إلا أنها في توجهاتها رأت في الغرب حليفًا ضد الخطر الهندي، الذي قسمها إلى باكستان وبنجلادش في حرب بين البلدين في ١٩٧١. ولا ضير في عصر النظام الباكستاني بين الخطر الهندي من الشرق والضغوط الشعبية والإغراء الأمريكي من الغرب، حتى يستسلم لأقلهما خطرًا على الأمد القصير؛ وهو التحالف الأمريكي، فالقادة لا يهتمون بالأمد الطويل حتى ولو كان أحدهم رئيسًا مدى الحياة .

ويمكن انتهاز الفرصة للقضاء على ثورة المورو في جنوب

الفلبين باعتبارها حركة إرهابية ضد الدولة، وحركة انفصالية ضد وحدة التراب الوطني. وقد سارعت رئيسة الفلبين أورويو بعد أحداث سبتمبر بالذهاب إلى الولايات المتحدة للاستفادة من الاتجاه والحالة المزاجية لضرب الإرهاب في كل مكان . في أفغانستان إرهاب كما أن في جنوب الفلبين إرهاب. ويمكن الإيحاء للصين بأن القضاء على الإرهاب في أفغانستان المتاخمة لها يساعد في القضاء على الحركات الانفصالية في سنكيانج. فالإسلام عدوى عامة في آسيا. ويمكن إقناع روسيا بأن القضاء على الحركة الإسلامية الجهادية في أفغانستان قد يقضي على امتداد أثرها داخل الجمهوريات الإسلامية المتاخمة لحدود روسيا مثل أوزبكستان، وطاجيكستان، وتركمانستان. كما يمكن إشعال نار الشيشان التي لم تنطفئ حتى الآن .

وتحتار النظم السياسية في آسيا الوسطي، أوزبكستان وتركمانستان وأذربيجان وطاجيكستان وقرغيزيا، الجمهوريات السابقة في الاتحاد السوفيتي بين نارين، نار الولايات المتحدة التي قد تندلع لدى الشعوب الإسلامية، إذا ما أيدت هذه النظم العدوان الأمريكي على الشعوب الإسلامية، وقد أفتى العلماء أنه لا يجوز للمسلم معاونة الأجنبي على ضرب أخيه المسلم، وأنه حرام شرعًا، ونار روسيا التي مازالت لها بالمرصاد، فهم في بطنها، وما يحدث فيها يؤثر عليها، ووجود الأمريكيين على أراضيها تهديد لروسيا وللصين على حد سواء. ومن ثم تحاصر النظم السياسية في

جمهوريات آسيا الوسطى بين نيران ثلاثة، النار الأمريكية التي تجلب الغنى والثروة والمعونات، وتحمي من نار أعظم، والنار الروسية الصينية التي تتوعد مناطق نفوذها السابقة، ومازال في إمكانها الانقضاض عليها أسوة بالشيشان، ونار الحركات الإسلامية الشعبية، الحركات الجهادية التي تطالب بالمحافظة على الاستقلال الوطني بعيدًا عن التبعية الأمريكية أو الروسية أو الصينية . لقد اختارت باكستان أن تحترق بنار الحركات الإسلامية. واختارت أوزبكستان وتركمانستان أيضًا الاحتراق بالنار الأمريكية أو بالحركات الإسلامية لأنها لم تصل بعد إلى درجة الغليان . واختار جميع القادة الاحتراق بعذاب الضمير والرهان الخاسر، وعذاب النفس، وصعوبة الاختيار بين العدو البعيد من وراء البحار، الذي تطول ذراعه الطويلة كل مكان في العالم، والعدو القريب المتاخم الحريص على ألا تمتد نار الحركات الإسلامية إلى ما تبقى له من مناطق. ففي أقل من خمسين عامًا سيفوق عدد المسلمين في روسيا عدد غير المسلمين .

ومنطقة الخليج (الفارسي) وما تختزنه في باطنها من مواد نفطية خام وفي خزانتها من عوائد نفطية مهددة في هويتها بين الهوية العربية والهوية الآسيوية، بسبب التركيبة السكانية فيها . فأهل البلاد لا يتجاوزون ١٠٪ . والمهاجرون العرب لا يتجاوزون ٣٠٪ والآسيويون يتجاوزون ٦٠٪ من مجموع السكان. وكلهم مسلمون إلا القليل . ففي حالة اشتعال النار السلفية تكون نظم

الحكم هي الضحية . وفي حالة إشتعال نار القومية العربية قد تستعمل النظم الحاكمة الأسيويين لضرب العرب. وإذا اشتعلت نار البؤس والحرمان خاصة عند البدون من أجل إحضار عائلتهم والمطالبة بالجنسية تطبيقًا لقوانين الأمم المتحدة، حينئذ يقع الصراع بين الهويتين إلى حد الاقتتال بالسلاح. وفي موجة ديمقراطية لابد آتية طبقًا لقوانين التاريخ، تكون أغلبية الأصوات للآسيويين، ويصبح العرب الأقلية. فتدبر الانقلابات، وتبدأ الهجرة المضادة، من المنطقة الخليجية إلى آسيا من جديد طريقًا لسيناريوهات آخر الزمان.

وترتع إسرائيل الآن في أواسط آسيا كما تشاء، تلوّح بالتعاون الاقتصادي، والاستثمار المشترك، والتنمية المادية والبشرية، وبمد الصلات إلى الغرب عبر الجسر الإسرائيلي. فالطيران مباشر بينهما. والعرب مازالوا يذهبون إلى أواسط آسيا عبر موسكو أو إيران وتركيا وباكستان. وقد كتب يهود هاليفي الخوزاري ليهود القوقاز، يهود الخزر. فالصلات قديمة. والعرب الأفغان ضررهم أكثر من نفعهم كما حدث في أفغانستان. وتحاصر إسرائيل الوطن العربي من دائرته الأوسع، الدائرة الإسلامية في أواسط آسيا كي تتعادل مع الدائرة المعارضة لإسرائيل في جنوب شرق آسيا، ماليزيا، وإندونيسيا وفي جنوب الوسط، باكستان وإيران وأفغانستان .

إن الصحوة الإسلامية الحالية التي بدأت منذ أكثر من عقدين

مـن الزمـان اسـتطاعت اسـتئناف حركـة التحـرر الـتي خبـت وانطفـأت، حتـى عـادت أشـكال الهيمنـة الجديـدة باسـم العولمـة واقتصـاد السـوق، ونهايـة التـاريخ وصـدام الحضـارات. وزادتهـا حوادث أيلول (سبتمبر) صحوة بعد أن كشف الغرب عن عدائه الـدفين للمسـلمين والعـرب. وأعلـن عمـا صـمت عنـه، ونطـق بمـا سـكت عنـه. واتضـح أن صـدام الحضـارات لـيس مجـرد تـأملات مفكر بل هو إعداد العالم لأولى حروب القرن!!

تجربتنا تقول إنهم سيعمدون إلى أساليب منها إثارة الفوضى والاغتيالات والحرب الداخلية بين أتباع الأديان أو القوميـات والقبائـل والأحـزاب، بـل بـين الشـعوب والبلدان الجارة، إلى جانب فرض الحصار الاقتصادي والمقاطعـة وتجميـد الأرصـدة الوطنيـة وأيضًـا الهجـوم الشـامل الإعلامـي والـدعائي . إن الهـدف مـن وراء كـل ذلـك جعـل الشـعوب تشـعر بالتعـب واليـأس، والثـوار بالترديـد والنـدم، والأعـداء يعلمـون أن مثـل هـذه الحالـة تجعل هزيمة الثورة ممكنة وميسورة

الإمام الخامنئي

وسائل تعزيز الصحوة الإسلامية

وتعميقها وترشيدها

يوسف الكتاني*

لا يجادل منصف في أن الأمة الإسلامية تعيش صحوة إسلامية عارمة تشمل مشارق الأرض ومغاربها، وآية ذلك أن المسلمين أخذوا يجاهدون منذ منتصف القرن الهجري الماضي لاسترجاع هويتهم الحقيقة بعدما فرّطوا فيها قرونًا وأزمانًا، ولاسترداد ذاتيتهم الإسلامية التي هي عنوان وجودهم ومظهر حقيقتهم، كي يستعيدوا مكانتهم التي وضعهم الله فيها على الأرض، أمة توحيد وإيمان، وعدل ووسيطة.

إن من طبيعة الكون، وسنن الله في الحياة، مرور الأمم والدول بمراحل الضعف والقوة، إن ركود الشعوب الإسلامية وطول سباتها، وسكون ضميرها، قد طال كثيرًا برغم طبيعة الإسلام وخصائصه التي تتنافى مع الجمود والتأخر والسكون،

---

*- رئيس جمعية الامام البخاري - المغرب.

وبالرغم من حجم الأمة الإسلامية وعظيم مكانتها، ومركزها وستراتيجيتها، وكثرة إمكاناتها، فقد استلذت هذا السباتَ حتى أصبح عميقًا، وهذا التأخر حتى ضيّعت معالمها، وحجزها قيمها، وتنكرت لمبادئها، وانحرفت عن منهجها وطريقها مبصورة بأضواء الشرق والغرب، راكضة وراء هذا وذاك كما أكد ذلك الرسول الكريم في قوله، «لتركبن سُننَ من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو أن أحدهم دخل جحر ضب لدخلتم».[1]

ذلك أن الحضارة الإسلامية عمرت ما شاء الله لها، ثم حلت بعدها عصور التخلف والجمود التي استمرت قرونًا، عرف العالم الإسلامي خلالها خلافات مذهبية أدت إلى تمزيق وحدته، وإبتعاده عن جوهر الإسلام القائم على كتاب الله وسنة رسوله، وتوقف الاجتهاد والتجديد أو كاد، وغدت الأجيال المتعاقبة لا تحرص إلا على النقل والتقليد، دون نقد أو تمحيص، إضافة إلى تسلط الاستعمار على اغلب الدول الإسلامية، والسيطرة على مقدراتها ومقوماتها، وتوجيه حملته الشرسة ضد الإسلام وقيمه، واثارة النزاعات الشعوبية والقبلية بين المسلمين وبث المستشرقين والمستغربين بين الناس، لتشكيكهم في معتقداتهم ودينهم، وفتنتهم في ديارهم وأوطانهم.

---

١ - رواه الامام أحمد في المسند ٢٣٨/٥ والترمذي في سننه.

وقد استمر ذلك إلى أن أذن الله لأمة الإسلام باليقظة والانبعاث فاستفاقت على صيحات ونداءات الرواد والدعاة الخالدين منذ أواخر القرن الثالث عشر الهجري وأوائل الرابع عشر الهجري، أمثال الشيوخ: جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، وعبدالرحمن الكواكبي...، ومحمد بن عبدالكبير الكتاني، وعبدالحميد بن باديس، وعبدالعزيز الثعالبي، والسنوسي، ومحمد علي جناح، وسواهم من أولئك الرواد الذين انطلقت صيحاتهم مجلجلة. توقظ شعوبنا وتنبهها، وتذكرها بمجدها ورسالتها، وتدعوها إلى الرجوع إلى أصالتها وقيمها.

إن هذه الأصوات التي انبعثت مدوية في أنحاء العالم الإسلامي كانت الناقوس الذي هز كيان الأمة الإسلامية، وحاول إيقاظ مشاعرها ودعوتها إلى ترك الفرقة والجهل والتداعي والخضوع، والمبادرة إلى استعادة الحرية والاستقلال في الحياة والفكر والمنهج، والاعتماد على النفس، والعودة إلى الإسلام دين الله الذي أعزّ به المسلمين، بوأهم المكانةَ الرفيعةَ التي تسنّموها قرونًا ويهدون ويصلحون، وضَمَنَ لهم بفضله الكرامةَ والعزّة والكفاية والعدل.

إن من بين هذه الصيحات الخالدة التي هزت كيان الأمة وأيقظتها صيحات الشيخ محمد الكتاني الشهيد، في مطلع القرن الماضي الذي يقول في *رسالة المؤاخاة*:

«إن ما أدركته أروبا من مدنية وعلم، إنما مرجعه إلى الحرية التي عبر عنها الشرع الكريم، بالقسط والعدل، والنصح وأعطاه كل منصب وما يتطلبه، وعدم إهمال بعضهم بعضًا، ومعرفتهم بحقّ مَنْ ظهر فيه أدنى نبوغ وتيقّظ، وعدم إهمال حقه وعدم رفضه».[1]

وقد كانت أولى الحقائق التي فتح هؤلاء الرواد، عيون الأمة وعقولها عليها، أن بداية العلاج، هي التعرف على الداء ووصف الدواء، وهو ما أصبحت تسعى إليه شعوبنا، التي أخذت تبحث عن نفسها، لتستره هويتها، ولتتخلص من رواسب الاستعمار والظلم والتسلط، نحو الإيمان والعزة والتقدم التي ضمنها الإسلام للمتمسكين به، والمتشبثين بمبادئه، إنه مما لاشك فيه أن المسلمين يعانون عوارض التخلف الحضاري، والموهن الخلقي والانهزام العسكري، وقد شغلنا بالمباهاة بتاريخنا، والحديث عن أمجادنا في كل المستويات، في حين ينبغي ألا يشغلنا ذلك عن معرفة أدوائنا، واكتشاف عيوبنا، والبحث الجدي عن وسائل التقدم والنهوض.

إن أهم أسباب تخلف المسلمين وتأخرهم، راجع إلى أمرين مرتبطين ببحثهما.

---

١ - رسالة المؤاخاة للشيخ محمد بن عبدالكبير الكتاني . مخطوطة خزانتنا الخاصة.

- عدم الإلمام بحقائق الإسلام ومقاصده.

- عدم الالتزام به.

وقد ترتبت عن ذلك الجرى وراء كل ما هو أجنبي عنّا، وغريب عن طبيعتنا وآمالنا، وتمثل ذلك في **تقليدنا لبدعة عزل الدين عن الدولة**، هذه البدعة التي تسببت في غياب الحياة الروحية لأصحابها أنفسهم، وكانت سببًا لما يعانيه العالم كله من ضياع وتمزق اجتماعي، وهو ما دفع المسلمين إلى جميع النكسات والنكبات التي أصيبوا بها، وكانت مدعاة تأخرهم وتخلفهم وقد يقول قائل: إن المسلمين بقوا متمسكين بدينهم على الأقل من الناحية العبادية، ولعل ذلك هو الخيط الذي استمسك به الدعاء والقادة، من أجل هذه الصحوة التي بدأنا نحياها، وهو الأمل الوحيد الذي يجعلنا ننظر إلى المستقبل بثقة وعزم.[1]

ما هي الصحوة الإسلامية؟

الصحوة التي بدأت أعراضها وظواهرها في منتصف القرن الهجري الماضي، هي روح جديد أخذ ينبعث في جسم الأمة الإسلامية ويسري في شرايينها، يدفعها للحركة والنهوض من جديد، استجابة لرسالتها التي أناطها بها الباري في هذه الحياة،

---

١ - انظر مقدمة كتاب العسكرية العربية الإسلامية، محمود شيث خطاب، مطابع الدوحة الحديثة.

وللمهمة العظمى التي خصها بها، وهي هداية الصالحين إلى الوحدة والخير والحق باعتبارها آخر الأمم الهادية، المؤمنة بآخر خطابات السماء إلى الأرض بالدين الخاتم الخالد دين الإسلام الحنيف.

وهي بذلك تكون ظاهرة صحية لمحاولة الأمة الإسلامية استرجاعها لهويتها الإيمانية واسترداد ذاتيتها الإسلامية، ولكيانها الحضاري المتميز باعتبارها خير الأمم، والأمة الوسط التي ختم الله الأمم، والمبشرة بالدين الحق.

وهي المظهر الإيجابي لعودة أمتنا الحنيفية للعودة إلى منهج ربها، والتمسك من جديد بالإسلام دينًا منقذًا من الضلالات ومحققًا للكمالات بالحركة الإيجابية نحو النهضة والانبعاث.

وهي الطريق الصحيح نحو التجديد في الإيمان والحياة التي دعا إليه ديننا ورسولنا في قوله الكريم: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مئة سنة، من يجدد لها أمر دينها**».

أبو فراس الحمداني
دارسة في مدحه وهجائه

بمناسبة ورود أبيات من الشاعر

في كلمة السيد القائد بمؤتمر الصحوة الإسلامية

المدح والهجاء فنّان من فنون الشعر العربي لهما قيمتهما الأدبية حينما يبتعدان عن التكسب، وفي بلاط سيف الدولة نرى مثل هذا الاتجاه في المدح والهجاء، خاصة عند الأمير أبي فراس الحمداني فهو يترفع عن الإسفاف، وله أسلوبه الخاص في المدح وخاصة في مدح سيف الدولة، ويموج مدحه بالطهر والعفاف خاصة في مدح المرأة، ويبلغ أبو فراس ذروة مدحه وهجائه في إطار رساليته، ويبتكر أجمل الفنون لمدح أوليائه من آل بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ، ويقارن بينهم وبين معارضيهم في أسلوب فريد في الأدب العربي، وتشيع في شعره قيم إنسانية سامية نحن بأمس الحاجة إليها اليوم .

موضوع المدح والهجاء له قيمته الفنية والاجتماعية المتمثلة في استجلاء طريقة تناول الأنا والآخر، لأن الشاعر في مدحه أو هجائه يسعى إلى تبين مظاهر القوة أو الضعف في نفسه أو قومه أو في شخص آخر أو قوم آخرين.

وليس من موضوع استأثر باهتمام الشعر العربي أكثر من المدح والهجاء، وذلك يعود لتوظيف الشعر في الصراع، وتاريخ العرب كله صراع، وهذا الصراع له جانب سلبي حين يكون من أجل الاستعلاء القبلي، وله جانب إيجابي حين يتجه إلى رفض الواقع السيء وإلى محاولة تقديم النموذج الأفضل للحياة.

موضوع المدح والهجاء إذن تغذيه المواقف الساخنة أو العصبيات، وتحدد اتجاهه نوع تلك المواقف، ويرتفع فنيًا كلما صدر عن شعور صادق لا يشوبه تكسب.

وبسبب ارتباط الشعر العربي على مر التاريخ برزق الشاعر، فقد شاع التكسب في المدح والهجاء، وبذلك خسر قسم كبير من الشعر العربي تلك القيمة الفنية التي اتصف بها في موضوعات الغزل والوصف والتأمل في الكون والموت والحياة وحتى لا أدخل في تطور المدح والهجاء في الشعر العربي، وهو موضوع يستحق دراسة مستفيضة لما يفرزه من تداعيات، أشير فقط إلى أن موضوع المدح والهجاء يتطور كلما ابتعد عن التكسب، وكلما نما في بيئة قادرة على أن تفجر طاقات الشاعر الفنية وتفتح ذهنه على آفاق جديدة ومعان مبتكرة .

وبلاط سيف الدولة يمثل النموذج الأسمى في البيئة التي توفرت لتطور موضوع المدح والهجاء للأسباب التالية:

١ـ كثرة الاحتكاكات بين هذا البلاط وغيره من الخصوم

السياسيين أو الفكريين أو الطامعين.

٢ ـ شخصية سيف الدولة الأدبية المرموقة التي اجتذبت إليها الشعراء، وجعلت الشاعر يرى نفسه في محيط أدبي أكثر مما هو في محيط حكم وحاكم .

٣ ـ شخصية سيف الدولة القتالية التي صيرت منه بطلاً أسطوريًا يقارع الخصوم ببسالة تستثير مشاعر الشعراء .

٤ ـ ارتباط هذا البلاط بآل بيت رسول الله فكريًا وعاطفيًا مما جعله يرتبط بتاريخ الأدب المقاوم المناضل الرافض للظلم والظالمين[١] .

بعد هذه المقدمة ألقي الضوء على موضوع المديح والهجاء عند الأمير أبي فراس الحمداني:

خصائص المدح والهجاء عند أبي فراس الحمداني

١ ـ الترفع عن الإسفاف في الهجاء:

نرى في هجاء أبي فراس نوعًا حضاريًا من الهجاء ينبو عن ذكر المثالب والأعراض، ويعبر عن نوع من الألم والمضاضة تجاه إساءات الآخرين، وكأنه لا يريد أن يطعن بمن يهجوه بقدر ما

١- انظر: أعيان الشيعة، محسن الأمين، ج ١٨، ط دمشق ١٣٦٤ هـ، ص ٢٩ ـ ٢٨٩ ؛ وسيف الدولة وعصر الحمدانيين، سامي الكيالي، حلب ١٩٣٩م ؛ وشاعر بني حمدان، أحمد أحمد بدوي، القاهرة، ١٩٥٢ م .

يريد صرفه عن غيّه، وقد تكون نتف من هذا اللون من الهجاء موجودة في الشعر العربي، لكن الذي يميز أبا فراس أن هجاءه يقتصر على هذا اللون الرائع المتزن، مما يبين أن علاقته بالآخر في مجتمعه علاقة إصلاح لا طعن حتّى ولو أساء إليه. يقول معلقًا على إساءة صاحبه:

صاحبٌ لما أساء اتبع الدلو الرشاء رب داء لا أرى منه سوى الصبر الشفاء

أحمد الله على ما سرّ من أمري وساء [1]

ويخاطب الذين ناصبوه العداوة بالقوة:

أيا قومنا لا تنشبوا الحرب بيننا أيا قومنا لا تقطعوا اليد باليد

عداوة ذي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

فياليت داني الرحم منا ومنكم إذا لم يقرب بيننا لم يبعد [2]

يبعد [2]

ولا نرى لأبي فراس شعرًا هجائيًا قاسيًا إلاّ مع أعداء أمته المحاربين . ثم نراه يهجوهم بهذه القسوة وهو يعيش في أسرهم، مما يبين مدى ما كان يتمتع به الرجل من إحساس بالرفعة والعزة أمام العدو، وهو ما نحن بأمس الحاجة إليه اليوم.

ثم نراه يهجوهم بعد أن استفزه قائد الروم الدمستق إذا قال له: إنّما أنتم كتّاب ولا تعرفون الحرب . فأجابه أبو فراس.

١- ديوان أبي فراس الحمداني، شرح علي العسيلي، بيروت، ١٤١٨ هـ ص ١١ .

٢- الديوان، ص ٨٣ .

أتـزعم يـا ضـخم اللغاديـد أننـا ونحن أسود الحرب لا نعرف الحربا

فويلك من للحـرب إن لم نكن لها ومن ذا الذي يمسي ويضحي لها تربا

ثم راح يعدد الوقائع التي انتصر فيها الحمدانيون على الروم، وبعدها قال:

بأقـلامنا أحجرت أم بسيـوفنا وأسد الشرى قدنا إليك أم الكتبا ؟

ثم يختتم القصيدة بأسلوب رائع في الهجاء إذ يقول:

رعـى الله أوفانـا إذا قـال ذمـة وأنفـذنا طعنًـا، وأثبتنـا قلبـا

وجـدت أباك العلـج لما خبرته أقلكم خيرًا وأكثركم عجبا[1]

عجبا[1]

٢ ـ أسلوب خاص بالمدح:

بسبب شيوع المداحين والهجائين المتكسبين يحاول أبو فراس أن ينفي عنه أن يكون مداحًا أو هجاءًا، ولكنه يقرّ بأنه مدح نفسه وآباءه، وأن أكثر شعره كان في هذا اللون من المدح، يقول:

الشـــعر ديـــوان العـــرب أبـــدًا وعنـــوان الأدب

لم أعـــدُ فيـــه مفـــاخري ومـــديح آبـــائي النجـــب

ومقطعـــــات ربمـــــا حليـــت مـــنهن الكتـــب

لا في المـــديح ولا الهجـــاء ولا المجـــون ولا اللعـــب[2]

١- الديوان ص ٣٩ ـ ٤١.

٢- الديوان، ص ٢٤ .

ويقول:

نطقتُ بفضلي وامتدحتُ عشيرتي وما أنا مداح ولا أنا شاعر
وهل تجحد الشمس المنيرة ضوءها ويستر نور البدر والبدر زاهر

وهذه الأبيات تبين ما آل إليه الشعر في زمن أبي فراس، فهو ينفي عن نفسه أن يكون شاعرًا كي لا يحشر في زمرة هؤلاء الذين يقولون مالا يفعلون، ويحترفون الكلمة دون إيمان بقدسية هذه الكلمة . وينفي عنه أن يكون مداحًا كي يحافظ على كرامة شعره.

وهذه الخصائص في مدح أبي فراس أبعدت مدحه عن المبالغات الشديدة التي ابتلي بها هذا اللون الأدبي، وصيرت من المدح عند شاعرنا ديوانًا يسجل فيه الوقائع ويصف فيه المعارك لا على طريقة المؤرخين، بل بأسلوب فني يصف فيه رجولة الأبطال وشهامتهم ورفعتهم وفق معايير إنسانية وإسلامية .

نراه ـ على سبيل المثال ـ حين يذكر مفاخر الماضي يقدم لها بالقول: إن مفاخر الحاضر أهم، دفعًا لتوهم قد يساور المستمع أن الشاعر يجتر أمجاد الماضي يقول:

أتسمو بما شادت أوائل وائل وقد غمرت تلك الأوالي الأواخر؟
أيشغلكم وصف القديم ؟ ودونه مفاخر فيها شاغل ومآثر
وهل يطلب العز الذي هو غائب ويترك ذا العز الذي هو حاضر؟

بعد هذه المقدمة يسرد أمجاد أجداده في وقائع تاريخية محددة، ويلاحظ أنّه في أبياته يذكر موقفين متضادين عن

علاقة قومه ببني العباس: موقف المدافع عن بني العباس، وموقف المهاجم المنتقم من العباسيين، ويبين سبب هذا التضاد وفق معايير خاصة . فيذكر عمّه الحسين بن حمدان ودفاعه عن الخليفة العباسي، ثم هجومه في وقت آخر على دار الخلافة، يقول:

نطيعهُمُ ما أصبح العدل فيهمُ ... ولا طاعةَ للمرء والمرء جائرُ
لنا في خلاف الناس عثمان أسوةٌ ... وقد جرت البلوى عليه الجرائر
وسار إلى دار الخلافة عنوةً ... فحرّقها، والجيش بالدار دائرُ[1]
دائرُ[1]

فمعيار العلاقة مع الخلافة العباسية هو«العدل» فإن ساروا عليه فهم مطاعون وإلا فلا طاعة لهم، ويشير إلى مشروعية الثورة على الحاكم الظالم إن سار بغير العدل، وهي مشروعية تنطلق من إيمانه بفكر مدرسة آل البيت ـ عليهم السلام ـ.

٣ ـ أسلوب مدحه سيف الدولة:

أكثر مدح أبي فراس في سيف الدولة، علاقة أبي فراس بسيف الدولة علاقة نسب وإمارة وشجاعة ورجولة، وطريقته في مدحه لها أسلوب خاص . تراه كلما مدحه كأنه يريد أن يفخر بنفسه وبهذه الطريقة يدفع عن نفسه أن يكون محترفًا للمدح ثم إنه يمدحه معددًا صفاته في النسب والشجاعة والبأس والرجولة، وهذه هي المشتركات بينه وبين أبي فراس . ولا نرى له مدحًا في

١- الديوان ٩٢ .

سخاء سيف الدولة ولا في قصوره ولهوه وقصفه، لأن مثل هذا المدح من شؤون المتكسبين، ولا تتناسب مع شخصية سيف الدولة في رجولته وبطولته وترفعه عن ترف العيش.

ومما أنشد في سيف الدولة وأشرك فيه نفسه قوله:

ألا قل لسيف الدولة القرم: إنني ... على كلّ شيء غير وصفك قادرُ
فلا تلزمني خطة لا أطيقها ... فمجدك غلاّب وفضلك باهر
ولو لم يكن فخري وفخرك واحدًا ... لما سار عني بالمدائح سائر
ولكنني لا أغفل القول عن فتى ... أساهم في عليائه وأشاطر[1]
وأشاطر[1]

وكان شاعرنا يعيش المرارة حين يبلغه عتب سيف الدولة عليه، فتثور شاعريته لينظم أبرع الإنشاد في مدح سيف الدولة، ومما قاله وهو في أسره:

وقد كنت أخشى الهجر والشمل جامع ... وفي كلّ يوم لفتة وخطاب
فكيف وفيما بيننا ملك قيصر ... وللبحر حولي زخرة وعباب
أمن بعد بذل النفس فيما تريده ... أثاب بمر العتب حين أثاب
وليت الذي بيني وبينك عامر ... وبيني وبين العالمين خراب[2]
خراب[2]

وهو أسلوب فريد في المدح تمتزج فيه مرارة الهجر وعشق الممدوح وصدق العاطفة، وهو مزيج قل أن نراه في الشعر العربي.

١- الديوان ص ٩٦.

٢- الديوان ص ٢٨.

٤ ـ المدح بالطهر والعفاف:

أذكر أولاً أنني أعتبر الفخر من المدح لأنه يعبر عن المعايير التي يراها الشاعر حسنًا في نفسه أو قومه، فهو يدخل في موضوع المدح الذي حدّدته في بداية هذا البحث .

والحديث عن الطهر والعفاف قد نجده في الغزل العذري، لكن قلّما نجده في المدح. وأبو فراس بارز في هذا المجال في أسلوب رائع يجسد دور النفس اللوامة في ضبط تصرفات الإنسان والتحكم في نزواته وشهواته[1]، يقول:

فيا نفس ما لاقيت من لا عج الهوى ... ويا قلب ما جرّت عليك النواظرُ

كأن الحجا والصون والعقل والتقى ... لدي لربات الخدور ضرائر

وهن وإن جانبت ما يشتهينه ... حبائب عندي منذ كن أثائر

وكم ليلة خضت الأسنة نحوها ... وما هدأت عين ولا نام سامر

فلما خلونا يعلم الله وحده ... لقد كرمت نجوى وعفت سرائر

إلى أن يقول:

ولي فيك، من فرط الصبابة، آمر ... ودونك، من حسن الصيانة، زاجر

عفافك غي، إنّما عفّة الفتى ... إذا عف عن لذاته وهو قادر[2]

قادر[2]

الأبيات تصور مشهدًا من مشاهد الصراع بين الطهر والهوى

١- انظر: أبو فراس فارس بني حمدان، عمر فروخ، ط ٢، بيروت ١٤٠٨ هـ . ويرى المؤلف المؤلف أن مجون أبي فراس لم يكن صادقًا، بل كان مجاراة لمذهب الشعراء في عصره .

٢- الديوان، ص ٨٦ ـ ٨٧ .

تحاكي قصة يوسف مع زليخا، وتنتهي بانتصار الإرادة على الشهوة، وهو من نوادر التصوير الفني في الأدب العربي

والشاعر يؤرقه شوقه إلى المحبوب، ويلتهب صدره بحب الحبيب، لكنه حب شريف عفيف السريرة، يقول:

كيف السبيل إلى طيف يزاوره ... والنوم في جملة الأحباب هاجره؟
الحب آمره والصون زاجره ... والصبر أول ما تأتي أواخره
أنا الذي إن صبا أو شفّه غزل ... فللعفاف وللتقوى مآزره
وأشرف الناس أهل الحب منزلة ... وأشرف الحب ما عفت سرائره[1]
سرائره[1]

والبيت الأخير يبلغ الذروة في فهم معنى الحب، ومكانة المحبين ومعنى الحب الحقيقي يمدح نفسه بأنه متخلق بهذا الحب العفيف الذي تتجلى فيه عظمةُ الإنسان وسموّه.

٥ ـ هجاء الأوضاع الاجتماعية

شاعرنا حساس يرى بواطن الأمور ولا ينخدع بالظاهر، ويرى الناس على حقيقتهم والأوضاع الاجتماعية على حقيقتها، فيسوءه ما يرى من مظاهر النفاق والدجل في المجتمع، وهي مظاهر موجودة دائمًا بدرجة وأخرى في المجتمعات البشرية خاصة حينما تختل الموازين الاجتماعية بسبب الأوضاع الاقتصادية والسياسية المهيمنة.

١- الديوان، ص ١٠٨.

ويظهر أن عصر أبي فراس كان يضج بهذا الاختلال نتيجة الاحتكاكات القبلية المستمرة والاشتباكات الحربية المتواصلة وضعف الخلافة المركزية، والحكومات المتعاصرة . غير أن هذا الوضع لم يؤد إلى انفعال شاعرنا وسخطه بقدر ما أدى إلى أن يتخذ موقف الحكيم الناقد لهذه الأوضاع، يقول:

وقور وأحداث الزمان تنوشني ... وللموت حولي جيئة وذهاب
وألحظ أحوال الزمان بمقلة ... بها الصدق صدق والكذاب كذاب
بمن يثق الإنسان فيما ينوبه ... ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلاّ أقلهم ... ذئابًا على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قومي فظنوا غباوتي ... بمفرق أغبانا حصىً وتراب
ولو عرفوني حق معرفتي بهم ... إذًا علموا أني شهدت وغابوا
وما كلّ فعّال يجازى بفعله ... ولا كلّ قوّال لدي يجاب
وربّ كلام مرّ فوق مسامعي ... كما طن في لوح الهجير ذباب[1]

ويتألم شاعرنا أن يرى الأوضاع الاجتماعية في بلاد أعدائه أفضل مما هي عليه في بلاده، ففي العامين اللذين قضاهما في بلاد الروم لم ير الحزن على الوجوه، ولا التكلف في السلوك، ويرى أن ما يخشاه من قومه أدهى مما يخشاه من أعدائه، وهذا أروع تصوير في النقد الذاتي، يقول:

أقمت بأرض الروم عامين لا أرى ... من الناس محزونًا ولا متصنعا

١- الديوان، ص ٢٦ .

إذا خفت من أخوالي الروم خطة تخوفت من أعمامي العرب أربعا
وإن أوجعتني من أعادي شيمة لقيت من الأحباب أدهى وأوجعا[1]
وأوجعا[1]

وهذا الهجاء للأوضاع الاجتماعية أو النقد الاجتماعي يعبر عن نزعة الشاعر الإصلاحية وفهمه لواقعه السيء، وجرأته على نقد هذه الأوضاع.

ومن هذا النقد ما يوجهه إلى الخلافة العباسية لتعاملها السيء مع أبناء علي الذين يمثلون في رأي الشاعر رمز الدين والتقى في المجتمع يقول:

الدين مخترم، والحق مهتضم وفيء آل رسول الله مقتسم
والناس عندك لا ناس فيحفظهم سوم الرعاة ولا شاء ولا نعم

ثم يقول:

يا للرجال أما لله منتصف من الطغاة ؟ أما للدين منتقم؟
بنو علي رعايا في ديارهم والأمر تملكه النسوان والخدم
محلؤون فأصفى شربهم وشل عند الورود وأوفى ودّهم لَمَمُ
فالأرض إلاّ على ملاكها سعة والمال إلاّ على أربابه ديم
وما السعيد بها إلاّ الذي ظلموا وما الغني بها إلاّ الذي حرموا
للمتقين من الدنيا عواقبها وإن تعجّل منها الظالم

١- الديوان، ص ١٥٢ .

الأثـــم[1]

والأبيات طافحة بالإحساس بالظلم الذي نزل بحَمَلة الرسالة الإسلاميّة من آل علي، بل بالناس أجمع حين أقصيت الفئة الصالحة عن مواقعها الاجتماعية.

٦ ـ مدح المرأة

الشعر العربي تغزل بالمرأة ورثاها وقلما خصّص مدحًا لها، لأنها ليست مصدرًا للصلات، أما أبو فراس فقد اتجه إلى مدح بعض النساء كما يمدح الرجل. ففي قصيدة يمدح فيها امرأة شيعها في يوم ثلج يبدأ بمقدمة غزلية تقليدية ثم ينتقل إلى الفخر، وبعده يقول:

ويوم كأن الأرض شابت لهوله	قطعت بخيل حشو فرسانها صبر
تسير على مثل الملاء منشرًا	وآثارها طرز لأطرافها حمر
أشيعه والدمع من شدة الأسى	على خده نظم على نحره نَثر
وعدت وقلبي في سجاف غبيطه	ولي لفتات نحو هودجه كُثُـــر

وقد يخيل لقارئ هذه الأبيات أن الشاعر يتغزل ولكنه في الواقع يمدح، لأن المعنية بهذه الأبيات ليست حبيبة بل امرأة من أكابر قومه، يقول فيها بعد ذلك:

وفيمن حوى ذاك الحجيج خريدة	لهادون عطف الستر من صونها ستر
وفي الكم كف لا يراها عديلها	وفي الخدر وجه ليس يعرفه الخدر

١- انظر: الادب في بلاد الشام، د . عمر موسى باشا، ص ٢٨١، والديوان، ص ٢١١ وما بعدها .

وهو من روائع المدح للمرأة في سترها وصونها ثم يرفع شأن هذه المرأة إلى الذروة حين يقول:

فهل عرفات عارفات بزورها ... وهل شعرت تلك المشاعر والحجر
أما اخضر من بطنان مكة ما ذوى؟ ... أما عشب الوادي أما أنبت الصخر
سقى الله قومًا حل قومك فيهم ... سحائب لاقل جداها ولا نزر[1]
نزر[1]

ويمدح امرأة يبدو أنها زوجه بأسلوب متميز أيضًا، يقول:

وأديبة اخترتها عربية ... تعزى إلى الجد الكريم وتنتمي
محجوبة لم تبتذل، أمّارة ... لم تأتمر، مخدومة لم تخدم
لو لم يكن لي فيك ألا أنني ... بك قد غنيت عن ارتكاب المحرم
ولقد نزلت فلا تظني غيره ... مني بمنزلة المحب المكرم

٧ ـ الرسالية في المدح والهجاء

المقصود بالرسالية ما اتجه إلى مدح أو هجاء منطلق من إيمان برسالة سامية، وهو شائع لدى الشعراء الموالين لآل البيت بشكل خاص، ويتميز أبو فراس بالتركيز على هذا الجانب حتى أنّه خصص قطعة من شعره ليذكر كلّ أئمة أهل البيت الاثنى عشر، وكأنه يريد أن يعلن عقيدته الاثني عشرية بكل وضوح وقل أن نرى ذلك عند غيره من شعراء الشيعة يقول:

لست أرجو النجاة، من كلّ ما ... أخشاه إلاّ بأحمد وعلي

١- الديوان، ص ١١٢ وما بعدها.

وببنت الرسول فاطمة الطهر وسبطيه والإمام علي
والتقي النقي، باقر علم الله فينا محمّد بن علي
وابنه جعفر وموسى ومولانا علي، أكرم به من علي !
وأبي جعفر سمّي رسول الله ثم ابنه الزكي علي
وابنه العسكري والقائم المظهر، حقي محمّد بن علي
بهم أرتجي بلوغ الأماني يوم عرضي على الإله العلي[1]

وله في هذا المجال قصيدة «الدين مختزم» وسنأتي على ذكر أبياتها في الحديث عن أسلوب المقارنة عند أبي فراس، وفيها أيضًا يهجو بعض العباسيين مادحًا العلويين من هذا المنطلق الرسالي حيث يقول:

خلوا الفخار لعلامين إن سئلوا يوم السؤال، وعمالين إن علموا
لا يغضبون لغير الله إن غضبوا ولا يضيعون حكم الله إن حكموا..
ما في ديارهم للخمر معتصر ولا بيوتهم للسوء معتصم
ولا تبيت لهم خنثى تنادمهم ولا يرى لهم قرد له حشم
الركن والبيت والأستار منزلهم وزمزم والصفا والحجر والحرم
صلى الإله عليهم أينما ذكروا لأنهم للورى كهف ومعتصم[2]
ومعتصم[2]

٨ ـ أسلوب المقارنة في المدح والهجاء:

يشاهد في شعر أبي فراس جمعًا بين المدح والهجاء بصورة مقارنة بين الممدوح والمهجو.

١- الديوان ص ٢٥٩ .

٢- الديوان، ص ٢١٦ .

نقف على سبيل المثال عند قصيدته المذكورة في مدح آل البيت وفيها يقارن بين العباسيين والعلويين . يقارن بينهما في الشرف والمكانة:

لا يطغين بني العباس ملكهم بنو علي مواليهم وإن زعموا

وفي شرف النسب:

أتفخرون عليهم لا أبا لكم حتّى كأن رسول الله جدكم

وفي المجد:

ولا لكم مثلهم في المجد متصل ولا لجدكم مساعاة جدهم

وفي العرق والرحم:

ولا لعرقكم من عرقهم شبه ولا نفيلتكم من أمهم أمم

وفي الصفح عن الأسرى:

هلاّ صفحتم عن الأسرى بلا سبب للصافحين ببدر عن أسيركم ؟

وفي الفارق بين هارون الرشيد وموسى بن جعفر، وبين المأمون وعلي بن موسى الرضا:

ليس الرشيد كموسى في القياس ولا مأمونكم كالرضا إن أنصف الحكم

وفي ما يتصاعد من بيوتهما من أصوات:

تبدو التلاوة من أبياتهم أبدًا وفي بيوتكم الأوتار والنغم

وفي النساء والرجال:

منكم عُليّة أم منهم ؟ وكان لهم شيخ المغنين إبراهيم أم لكم ؟

وهذا الأسلوب في المقارنة طريقة بديعة في المدح والهجاء قلّ أن نجد لها نظيرًا في الشعر العربي .

٩ ـ أسلوب الحوار في التمدح:

هذا الأسلوب نجده بوضوح في قصيدة «أراك عصي الدمع» التي ذكر السيد القائد بيتين منها في كلمته بمؤتمر الصحوة الإسلامية وفي هذه القصيدة يبدو على الظاهر أنّه يتغزل، ولكن لو أمعنا النظر فيها لوجدنا أنّه يتحدث عن نفسه بأنه: صابر ـ حافظ للعهد ـ حبه لا يتزعزع ـ معروف غير مغمور ـ قائد كتائب القتال ـ مقتحم لكل الأهوال ـ محارب لا يهدأ ـ صاحب رجولة أمام طلب النساء ـ كريم ـ يتخير أصعب الطرق ـ لا يرضخ للذل ـ لا يستغني عنه أهله ـ لا يتخير إلاّ الصدر ـ تهون عليه نفسه في طلب المعالي.

إذن هو يمتدح نفسه في هذه القصيدة أي يفخر بها وهو في أسره، والمحاور في القصيدة لا يبدو أنّه امرأة يتغزل بها، بل مَثَل أعلى يتعشقه، والدليل على ذلك أن هذه المحاورة تعرف كلّ فتى مثل أبي فراس ولا تنكره، وأن قتلاها كثيرون، فهو إذن يتحدث مع مُحاورةٍ تحاول أن تتجاهله وهو ينكر عليها هذا التجاهل، وليس ببعيد أن تكون حريته أو سيف الدولة كما ذهب إلى ذلك بعضهم . لأنه كان يتوق إليهما وهو في أسره، بينما كان سيف الدولة ـ في ظن أبي فراس ـ يتجاهله، فهو يرد على هذا التجاهل بذكر كلّ الصفات الكريمة التي يتحلى بها.

والجميل في أسلوب القصيدة هو ذكر هذه الصفات الحميدة على شكل حوار:[1]

ـ بلى أنا مشتاق وعندي لوعة أما للهوى نهي عليك ولا أمر ؟

١- الديوان، ١٢٩ وما بعدها .

ـ تسائلني من أنت ؟ وهي عليمة ولكن مثلي لا يذاع له سرّ..
ـ فقلت: كما شاءت وشاء لها الهوى وهل بفتى مثلي على حالها نُكر؟!
ـ فقلت لها: لو شئت لم تتعنتي فتيلك ! قالت: أيهم فهو كُثر!
ـ فقالت: لقد أزرى بك الدهر بعدنا ولم تسألي عني وعندك بي خُبر!
وفي بعض أبياته يحاور أصحابه: فقلت: معاذ الله بل أنت لا الدهر
ـ وقال أصيحابي: الفرار أو الردى
ـ يقولون لي: بعتَ السلامةَ بالردى ـ فقلت: هما أمران أحلاهما مرّ
ـ فقلت: أما والله ما نالني خُسر

إن أبا فراس من نوادر الشعراء العرب الذين عَزَفوا على قيثارة قلوبهم، فما كان يصطنع الشعر كسبًا للمال، ولا كان يهتم بكسب ودّ هذا وذاك، ولكنه كان في شعره يعبر أصدق تعبير عن تجربته الشعورية، ثم إن الرجل توفرت له بيئة رفعته من الانشداد بهمومه الذاتية وعواطفه الفردية، فعاش لهمّ كبير هو الدفاع عن دولة ارتبط بها نسبًا وقيادة وعقيدة، فكان يهمه أن يرى هذه الدولة منسجمة موحدة قوية في داخلها، صامدة منتصرة أمام أعدائها، من هنا اتجه مدحه إلى كلّ ما يحقق آماله وطموحاته، واتجه هجاؤه إلى كلّ ظاهرة من شأنها إضعاف شوكة هذه الدولة ومصادرة عزتها وكرامتها.

ونحن اليوم ـ في اعتقادي ـ بأمس الحاجة إلى تعميم القيم التي تغنى بها أبو فراس من رجولة وكرامة ووحدة وانسجام، ومن رفض لكل التحديات التي تواجه شخصية الأمة.

قصة الناي في فكر الكواكبي

ومشروعه الاستنهاضي

قصة الناي معروفة في ديوان مولانا جلال الدين الرومي، المعروف بالمثنوي، هذه القصّة التي تتصدر الديوان تشكل عصارة فكر هذا العارف الكبير، وخلاصة مشروعه الاستنهاضي، وأرى ثمة مشتركات كثيرة بين هذا الفكر ومشروع الاستنهاض الذي تبناه الكواكبي. قد يعود هذا التشابه إلى وحدة الدائرة الحضارية في العالم الإسلامي، هذه الوحدة التي جعلت كثيرًا من تياراتنا الفكرية والادبية والثقافية تنطق بلغة واحدة، وصيّر منها كما يقول بعضهم أواني مستطرقة.

ولعلّ ذلك يعود أيضًا إلى مشتركات أخرى توحيها الينا مفردات مثل: تبريز، وحلب، والمولوية، واللغة العربية، واللغة الفارسية، واللغة التركية، والواقع المتخلف، واسترخاء إنسان العالم الإسلامي، وطبيعة روح الاستنهاض في المشروع الإسلامي.

وقفة تحليلية عند قصة الناي

بعد الغزو المغولي للعالم الإسلامي أصيبت الأمة بحالة أشبه ما تكون بالوصف الذي أطلقه الكواكبي على الأمة بعد عصر

الغزو الاستعماري الحديث وهو: الفتور العام[1] .

وكلمة «الفتور العام» ذات دلالات كبيرة، فهي تعني ضعف روح الأمة وحركتها نحو التكامل بعبارة أخرى ضعف الروح الحضارية لدى الأمة.

الفتور العام هو وراء كل تخلّف معنوي ومادّي بين البشر، ويصيب الأمة بعد أن تفقد أهم عنصر من عناصر حيويتها وهو «العزّة».

«العزّة» أو «التيموس» بتعبير افلاطون هو وراء كل حركة التاريخ كما يقول فوكوياما[2] . وإذا أصيبت العزّة بانتكاسة فإن حركتها التاريخية الحضارية تصاب بخمول وضمور.

والعزّة في المنظومة الفكرية الإسلامية لها مكانتها الهامّة، والحفاظ عليها هو أهمّ ما أكدت عليها الشريعة الإسلامية. في القرآن والسنّة وآراء المجتهدين والفقهاء نصوص مستفيضة عن أهميتها، ولا مجال لاستعراض ذلك. من هنا فان هذه العزّة ـ إذا أصيبت بانتكاس ـ هي أهم ما يجب أن يسعى إلى استعادتها دعاة الاصلاح.

جلال الدين الرومي في عمليته الإصلاحية يستهدف استنهاض الروح الانسانية في الموجود البشري، واستثارة الأشواق التكاملية

---

١ - أم القرى، الاجتماع الثاني (الداء أو الفتور)، ص ٥١ ومابعدها، دراسة وتحقيق د. محمد جمال الطحان، ط١، دمشق ٢٠٠٢م.

٢ - انظر: نهاية التاريخ والانسان الاخير، فرانسيس فوكوياما، ترجمة د. فؤاد شاهين وآخرون، بيروت ١٩٩٣, ص ٢٧ ومابعدها.

فيه، مع استشعاره بعزّته.

فهو يتحدث عن الناي الذي يشكو ويحكي عن آلام الفراق. فهذا الأنين الذي نسمعه من الناي هي أشواق لأصله الذي انتزع منه يقول:

بشنو از ني چون شكايت مي‌كند
واز جدائيها حكايت مي‌كند
كزنيستان تامرا بُبريده‌اند
در نفيرم مرد و زنناليده‌اند

أي: اسمع من الناي إذ يشكو
وعن فراقه إذ يحكي
فما إن قطعوني عن مزرعة القصب
حتى بدأت أئن ويئن معي الرجال والنساء

فالموجود البشري يحمل أشواق العودة إلى أصله، وهو من الله، ففيه «نفحة روح ربّ العالمين» ولذلك فهو يحمل أشواق الاتجاه إلى الله.. أي الاتجاه نحو كل ما يتصف به الله من صفات الجلال والجمال نحو العلم والخلق والإبداع والجمال والقوّة والعزّة والكرامة والرحمة.. وهذه حقيقة الموجود البشري، والتأكيد على هذه الحقيقة فيه استشعار لعزّة الإنسان، واستثارة لأشواقه نحو الكمال.

الأنين الذي يصدر من الناي هو شوق الكمال الحضاري، وهو جوهر الإنسان، وهو العشق في التعبير العرفاني.

لكنّ هذا الاشتياق نحو الكمال بحاجة إلى إنسان متألم متحسس لابتعاده عن ركب الحضارة الإنسانية، فالإنسان الذي لا يحمل هذا الهم لا يفهم هذا الاشتياق. يقول مولانا في هذه القصيدة:

سينه خواهم شرَحه شَرحه از فراق
تا بگويم شرح دردِ اشتياق

أي: أطلب صدراً يتمزّق من هذا الفراق
لأبثّ له شرح آلام الاشتياق

ثم ينحو باللائمة الشديدة على من لا يفهمون أسرار هذا الأنين، أو أسرار هذا الشوق في الناي. يقول:

آتشست اين بانك ناي ونيست باد
هركه اين آتش ندارد نيست باد

أي: إن صوت الناي هذا هو نار وليس هواء
والموت لمن لا يملك هذه النار

وهذه النار هي نار العشق.. العشق نحو الكمال، وهذا العشق هو الذي يجعل الخمرة فاعلة في نفس الإنسان. يقول:

آتش عشقست كاندر نَي فتاد
جوشش عشقست كاندر مَيْ فتاد

إنها نار العشق التي وقعت في الناي
إنها فورة العشق التي وقعت في الخمرة

ويختتم قصة الناي بالتأكيد على ضرورة أن يبلغ الإنسان درجة من النضج لكي يفهم كلام الناضجين، أي إن الإنسان

يجب أن يرتفع في مستواه الفكري والروحي لكي يستمع إلى نداء الاشواق التي تعتمل في نفسه يقول:

در نيابد حال پخته هيچ خام

پس سخن كوتاه بايد والسلام

لا يعي حال الناضجَ أيُّ فجّ خام

فلنقلّل الكلام ونقول: السلام

باختصار الفتور الذي يصيب الإنسان والمجموعة البشرية ناتج عن خمود أشواق التكامل فيه، وهذه الأشواق بحاجة إلى استثارة، ولابدّ قبل هذه الاستثارة من توعية الإنسان على واقعه المتخلف كي يفهم صوت هذه الأشواق.

الفتور العام في فكر الكواكبي

يتحدث الكواكبي على لسان «المولى الرومي» وهو اسم له دلالة على عنوان بحثنا، عن سبب الفتور العام أو التخلف الحضاري بتعبيرنا، فيرى أنها فقدان «الحريّة». ولكن حين يتحدث عن الحرية بمفهومها العام تجد أنها العزّة بالذات. يقول:[1].

«وعندي أن البلية فقدُنا الحرية، وما أدرانا ما الحرية؟! هي ما حرمنا معناه حتى نسيناه، وحرم علينا لفظه حتى استوحشناه. وقد عرف الحرية من عرفها: (بأن يكون الإنسان مختاراً في قوله وفعله لا يعترضه مانع ظالم). ومن فروع الحرية تساوي الحقوق ومحاسبة الحكام باعتبار أنهم وكلاء، وعدم الرهبة في العدالة

---

١ - أم القرى، مصدر مذكور، ص ٥٨ ومابعدها.

بأسرها حتى لا يخشى إنسان من ظالم أو غاصب أو غدار مغتال؛ ومنها الأمن على الدين والأرواح، والأمن على الشرف والأعراض، والأمن على العلم واستثماره، فالحرية هي روح الدين، وينسب إلى حسان بن ثابت الشاعر الصحابي رضي الله عنه قوله:

وما الدين إلا أن تقام شرائع وتؤمن سبل بيننا وهضاب

هذا، ولا شك أن الحرية أعزّ شيء على الإنسان بعد حياته، وإنّ بفقدانها تفقد الآمال، وتبطل الأعمال، وتموت النفوس، وتتعطّل الشرائع، وتختلُّ القوانين. وقد كان فينا راعي الخرفان حرًا لا يعرف للملك شنآنا يخاطب أمير المؤمنين بيا عمر، ويا عثمان، فصرنا ربما نقتل الطفل في حجر أمه ونلزمها السكوت فتسكت، ولا تجسر أن تزعج سمعنا ببكائها عليه.

وكان الجندي الفرد يؤمّن جيش العدو فلا يخفر له عهد، فصرنا نمنع الجيش العظيم صلاة الجمعة والعيدين، ونستهين دينه لا لحاجة غير الفخفخة الباطلة.

فلمثل هذه الحال لا غرو أن تسأم الأمة حياتها، فيستولي عليها الفتور، وقد كرّت القرون، وتوالت البطون، ونحن على ذلك عاكفون، فتأصل فينا فقدُ الآمال وتركُ الأعمال والبعدُ عن الجد، والارتياحُ للكسل والهزل، والانغماسُ في اللهو تسيكنا لآلام أسر النفس، والإخلاد إلى الخمول والتسفل طلبًا لراحة الفكر المضغوط عليه من كل جانب. إلى أن صرنا ننفر من كل الماديات والجديات حتى لا نطيق مطالعة الكتب النافعة ولا الإصغاء إلى النصيحة الواضحة، لأن ذلك يذكرنا بمفقودنا

العزيز (انظر بدقة إلى عبارة: مفقودنا العزيز) فتتألم أروحنا، وتكاد تزهق إذا لم نلجأ إلى التناسي بالملهيات والخرافات المروّحات.

وهكذا ضعف إحساسنا وماتت غيرتنا، وصرنا نغضب ونحقد على من يذكرنا بالواجبات التي تقتضيها الحياة الطيبة، لعجزنا عن القيام بها عجزا واقعيًا لا طبيعيًا».

وقفة قصيرة عند بداية هذا «الفتور»

ذكرنا أن الركود الحضاري أو الفتور كما يسميه الكواكبي يبدأ منذ انتكاسة عزّة الإنسان في المجتمع، ويرى أن هذه الحالة فرضت عليه منذ أكثر من ألف عام: «إن مسألة تقهقر الاسلام بنتُ ألف عام أو أكثر»[1]، ولكن مع ذلك فإن أساس الدفع الحضاري للاسلام بقي متواصلاً رغم كل ما فرض عليه من عقبات: «وما حفظ عزّ هذا الدين المبين (لاحظ كلمة عزّ هذا الدين، والمقصود طبعًا عزّ أهله) كل هذه القرون المتوالية إلاّ متانة الأساس».

وهنا أقف بشكل عابر عند تعليق الاخ الدكتور محمد جمال الطحان المحقق لكتاب أم القرى على عبارة «ألف عام أو أكثر». فقد قال: «أي منذ ٣١٦ هـ = ٩٢٨م حيث تمكن غير العرب من حكم الدولة العبّاسية في أواخر عهدها.

قلت أقف بشكل عابر لأن التاريخ لايهمنا إلا بمقدار ما نبني

---

١ - ام القرى، مصدر مذكور، ص ٤٣.

به مستقبلنا. وفي هذه الوقفة العابرة أذكر رأيًا آخر تبناه مالك بن نبي وغيره وهو إن انحدار منحني العزّة بدأ منذ «وقعة صفين»[1] حين استولت الارستقراطية القرشية على الحكم و«عادت العصبية إلى الحكم الذي صار وراثيًا قيصيريًا»[2] وقمعت إرادة الأمة بالسيف والقهر والتجويع والتخويف.

والعصر العبّاسي في بدايته كان عصر انفتاح وتعامل بين الحضارة الإسلامية والحضارات الأخرى، لكنّ ظاهرة الوراثة في الحكم وما يستتبعها من استبداد تواصلت وهي التي أذاقت الحاكمين علقم سيطرة حاشيتهم من غير العرب عليهم وتحويلهم إلى لعبة يعبثون بها كيف يشاؤون.

علاقة «الفتور» بالاستبداد

حين تذكر كلمة الاستبداد في يومنا هذا لا ينصرف الذهن إلاّ إلى الحاكم المستبد، بينما ذهب الكواكبي إلى معالجة الأمر من منظور حضاري، وهو أن التخلف الحضاري يفرز الاستبداد إفرازا ذاتيًا.

فالإنسان حين يفقد عزّته الحقيقية يبحث عن عزّته السرابية، وبتعبير قصة الناي لمولانا حين لا يكون في الناي نارٌ، يعبث فيه

---

١ - شروط النهضة، ترجمة عمر كامل مسقاوي وعبدالصبور شاهين، دار الفكر، ط٣، ١٩٦٩، اثر الفكرة الدينية في تكوين الحضارة، ص ٩١ ومابعدها.

٢ - فلسفة التاريخ عند مالك بن نبي، د. احمد مسعود، مقال في مجلة «ثقافتنا» المجلد ١ العدد ٢.

الهواء، وبالتعبير القرآني حين لا يتجه الظمآن إلى الماء يتجه إلى السراب الذي «يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً».

وهنا ينشأ الاستبداد، فالمستبد إنسان فَقَدَ مَثَلَه الاعلى الذي يجد فيه عزّته، فراح يبحث عن عزّته بطرق شتّى ومنها محاولته أن يفرض رأيه على من تحت سيطرته، ومنها التعصّب لرأي يتبنّاه ويرى عزّته في التشبث به.

يقول الكواكبي: «إن كلّ فرد من أسراء الاستبداد مستبد في نفسه. ولو قَدَر لجعل زوجته وعائلته وعشيرته وقومه والبشر كلّهم حتى وربَّه الذي خلقه تابعين لرأيه وأمره»[1].

وهذه فكرة هامّة توضّح علاقة الاستبداد بحالة التخلف الحضاري. فحالة التخلف هذه تفرز الاستبداد بجميع أنواعه.. السياسة تُصبها في هذه الحالة الاستبداد، والأفكار والعقائد تُمنى بحالة الاستبداد، والدين أيضا يُمنى بالاستبداد.

وبالمناسبة فان الحديث عن الاستبداد الديني إلى جانب الاستبداد السياسي، واعتبار أن الاستبداد الديني أسوأ من الاستبداد السياسي كان له صدى في إيران، وعلى هذا المنوال دوّن آية الله ميرزا محمد حسن النائيني كتابه: *تنبيه الأمة وتنزيه الملة*[2].

والمستبد السياسي هو أيضا مثل سائر المستبدين في دائرة

---

١ - طبائع الاستبداد.

٢ - انظر، ص ٦٤ من الكتاب (بالفارسية)، تحقيق سيد جواد ورعي، ط١، قم٢٠٠٣م.

الفكر والعقيدة والدين والأسرة والمهنة يبحث عن عزّته في التعالي على المجتمع وإذلاله. يقول الكواكبي:

«إن المستبدين من السياسيين يبنون استبدادهم على أساس من هذا القبيل أيضًا، لأنهم يسترهبون الناس بالتعالي الشخصي والتشامخ الحسي، ويذللونهم بالقهر والقوة وسلب الأموال حتى يجعلونهم خاضعين لهم عاملين لأجلهم، كما خلقوا من جملة الأنعام نصيبهم من الحياة ما يقتضيه حفظ النوع فقط»[1].

* * *

مما تقدم نستنتج أن مشروع الكواكبي في الاصلاح لا يتجه إلى معالجة الاستبداد السياسي كما هو الشائع، بل معالجة حالة الاستبداد الطبيعية التي يفرزها «الفتور» أو التخلف الحضاري، وهذا التخلف الحضاري لا يمكن معالجته إلاّ باستنهاض الروح الإنسانية في الموجود البشري واستثارة الأشواق التكاملية فيه مع استشعاره بعزّته، وهو مشروع مولانا جلال الدين الرومي كما يبينه بصورة أدبية رائعة في قصة الناي.

إن وثائق وكر التجسس الأمريكي التي وقعت بيد الثورة في إيران الإسلام، أوضحت بدقة أن كل هذه الدسائس قد خطط لها نظام الولايات المتحدة الأمريكية .

الإمام الخامنئي

---

١ - طبائع الاستبداد.